

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

قسم التاريخ

السنة الأولى ماستر/السداسي الثاني/ تخصص: الحضارة الإسلامية.

المادة : تاريخ الحروب الصليبية.

الأستاذ: الدكتور قريان عبد الخليل.

المحاضرة الأولى

عناصر المحاضرة:

أولاً: تعريف عام بالحروب الصليبية.

ثانياً: أهم المصادر والمراجع.

العرض:

أولاً: تعريف عام بالحروب الصليبية (489هـ - 690هـ / 1096م - 1291م).

الحروب الصليبية¹ هي سلسلة من الحروب التي شنتها أوروبا الغربية المسيحية باسم الصليب² ضد المسلمين في المشرق والمغرب الإسلاميين، مدعية في ذلك انقاذ بيت المقدس وقبر المسيح وكنيسة القيامة من سيطرة المسلمين. وكانت عملية الشحن الديني المسيحي ضد المسلمين هي المحرك الذي وُظف في التحريض وتجهيز الجيوش وتأليب الرأي العام

¹ هذه التسمية خاصة بالغربيين الذين اظهروها في القرن الثامن عشر الميلادي، انظر، قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية ص 9-10. بينما اتخذ المؤرخون المسلمون اسم الفرنج أو الفرنجة. مثل ابن تغري بردي وابن كثير وابن الاثير.

² كان رمز الصليب يصنع من القماش الاحمر ويحمل على اذرع المسيحيين المقاتلين

الغربي لاستدرار الأموال والرجال وتوظيفهم وقودا لهذه الحروب التي دامت اصطلاحيا أكثر من قرنين.

أما الدوافع الكامنة وراء هذه الحروب المتواترة فإنها تنفيس عن القلق المفزع الذي سيطر على النفسية الغربية، واستجابة متأخرة لتحد حقيقي فرضه المسلمون على الغرب الأوربي خلال أربعة قرون، وكان هذا التحدي كما يتصوره الغربيون مهددا لدينهم المسيحي وتاريخهم وجغرافيتهم، بعد أن تمت إزاحتهم عن أقاليم امتلكوها قرونا ولم يخطر على بالهم أنهم غادروها إلى الأبد.

كان الغرب الأوربي ينظر للمسلمين كيف استطاعوا اكتساح مساحات شاسعة كانت تعد من مستعمراتهم القديمة، وكيف اعتنقت هذا الدين الجديد شعوباً كانت تحت سيطرتهم، ولم يمر عليها إلا حين من الدهر حتى ظهرت فيهم علامات النجاة العسكرية والعلمية، وتأسست بهم دول أصبحت لها سيادة الدنيا، فبعد ما كانت شعوب الشام ومصر وشمال افريقية تحت السيطرة البيزنطية أضحت وفي وقت وجيز نسبيا تدين بالإسلام وفي عداد الأقاليم الإسلامية، كما تمت عملية إجلاء الفرس من العراق، وأضحت المنطقة برمتها تحت السيادة الإسلامية.

ولم يتوقف طموح المسلمين الدعوية لنشر الإسلام واكتساب مواطن جديدة عند هذا الحد وإنما كان توجههم يستهدف المعاقل الغربية العريقة والعواصم المسيحية الكبيرة مشرقا ومغربا، فقد حاول المسلمون مبكرا - قبل نهاية القرن الهجري الأول - فتح القسطنطينية عاصمة الكنيسة الشرقية، كما هددت جيوشهم عاصمة الكنيسة الغربية روما.

ورغم أن هذه المحاولات المتكررة لم تحقق أهدافها إلا أنها كانت إنذارا بالغ الذعر للغرب المسيحي بأن دولهم باتت هدفا مؤكدا للمسلمين خاصة بعد أن تم فتح الأندلس من قبل المسلمين البربر وصارت تابعة للخلافة الإسلامية، ووصول جيش المسلمين إلى بواتيه في تخوم الأطراف الجنوبية لباريس، كما تم بعد حوالي قرن من الزمان فتح جزيرة صقلية، وبات المسلمون على مرمى حجر من روما والقسطنطينية.

وما زاد في زعر الأوروبيين أن غدت مدن المسلمين كبغداد وقرطبة عواصم العالم الاقتصادية والعلمية، وأضحت في القرن الرابع الهجري/10م مهوى كثير من طلبة أوروبا

وعلمائها، وأصبح النفوذ العسكري البيزنطي والعلمي اليوناني تاريخا يدرسه الأوروبيون ويتأسفون عليه.

إن الغرب الأوروبي لم يصدق ما رآه في الواقع حيث انقلبت سياسته الاستعمارية العدائية لشعوب العالم والسيطرة عليها لقرون، إلى محاولات لإنقاذ حدوده وأقاليمه الأصلية، فبعد أن كان يهدد دول العالم في عمقها أصبح مهددا في عواصمه من قبل المسلمين، وهذا التحول الأسطوري الذي فرضه المسلمون لم تستطع أوروبا هضمه أو تقبله واستيعابه، وكان بالنسبة إليها تحد لوجودها وهويتها، مما أثارها وجعلها تعيد كل حساباتها، وكان على رأس أهدافها مشروع استعادة هيبتها واسترجاع ممالكها بذات النفس الروماني والبيزنطي الذي لا يزال يقبع في نفسيتها وفي عروقها الثقافية، ولم تغيره التحولات التاريخية ولا القيم الانسانية العالمية التي أرساها المسلمون.

هذا الشعور رافق النفسية الغربية في عمومها طيلة قرون أربعة يفكرون ويقدرّون وينظرون في أهدى الطرق لاستعادة ما فاتهم، ونار التحدي لا تزال تشتعل في صدورهم وتستعر في قلوبهم ينقلها السلف للخلف، وكلما مر الوقت ازدادت جذوة هذه النار قوة وشدة لم تستطع أوروبا أن تتحملها أو أن تبقىها في صدرها، ولفظتها حروبا مستعرة ضد المسلمين.

إنها الفرصة السانحة لرد الفعل الذي طال انتظاره من قبل الغرب الأوربي المسيحي، وحصاد قرون من الحيرة والغيب الذي انتاب صدور ساستها وأحبارها وقساوستها³.

على أنه ينبغي التنبيه إلى أن أوروبا لم تتجراً على شن هذه الحروب على المسلمين مشرقا ومغربا إلا بعد أن أنست من نفسها قوة واستجابة قوية للتحدي فرغم خسارتها بالمشرق في معركة ملاذكرد(منزكرد) وبالمغرب(الأندلس) في معركة الزلاقة (479هـ) إلا أن ذلك كان دافعا قويا لإعادة ترتيب قواها من جهة وكشفت لها على محدودية القوى الاسلامية التي تعيش تفككا كبيرا إن في المشرق والمغرب، ففي المشرق استطاع النورمان(جند من شمال فرنسا جاءوا الى جنوب ايطاليا) في جنوب ايطاليا بعد تصالحهم مع

³ تحدثت ابنت كثير عن احداث 358هـ أن ملك الروم بالقسطنطينية اغار على الشام لمدة شهرين وفعل الافاعيل فيها ثم رجع ومعه مائة الف اسير، انظر الكامل ج7، ص 313-314.

البابا الاستيلاء على جزيرة صقلية سنة 484هـ/1051م⁴ حيث كانت بها حروب اهلية (بدأت سقوط المدن الصقلية منذ 454هـ/1061م)، وكان الزيرون منشغلين في حروب مع ابناء عمومتهم الحماديين منذ سنة 457هـ.

وفي الاندلس كان انتصار المسلمين في الزلاقة سنة 479هـ/ محاولة مخلصه من المرابطين لاستعادة اللحمة الاسلامية التي مزقتها ملوك الطوائف لأكثر من نصف قرن، ورغم انتصار المسلمين في هذه المعركة إلا أن الشرخ الكبير الذي صنعته شهوات التملك والسيادة وأهواء العصبية والسياسة وفقدان الحكمة والبصيرة نحو الوحدة قد شنت الأخوة الاعداء وقسم الاندلس قطعاً متصارعة وقبائل متناحرة بأسهم بينهم شديد يعادي بعضهم بعضاً ويكيد الجميع للجميع والعدو ويستمد قوته من تفرقهم ويستفيد من تردي حالتهم ويرقبهم بعين المترص وينتظر الاجهاز عليهم، وهم في غفلة من أمرهم، وترسخت الفرقة في نفوس السياسيين والعامه حتى صارت طبيعة أو أقرب إلى الطبيعة، ولم يفلح هؤلاء الملوك من استعادة وحدتهم في أطار المد المرابطي، ولم يفكروا جدياً في استرجاع مدينة طليطلة (سقطت سنة 478هـ) التي كانت وراء حضور المرابطين ومن أهداف حملتهم، ولم تكن نتائج الزلاقة في الواقع سوى تأخير مؤقت لمسلسل اسقاط المدن الاسلامية دون المساس بقوة الفرنج الذين اعدوا التموغ من جديد في ظل استمرار التشرذم بين ملوك الطوائف، ورغم عودة المرابطين سنة 484هـ لانتهاء حكم الطوائف إلا أن الاوضاع في عمومها بقيت على حالتها مما أشعر الغرب الاوروبي برغم كل ذلك أن مشروعه في السيطرة على الارض وقضم أطراف الاندلس الاسلامية قد تأكد وتجذر بفشل المسلمين من استرجاع المدينة المسلوبة، وأن المسلمين لم يعد في مقدورهم ولا من مشرعهم التوجه نحو الشمال الاندلسي، وكان هذا الشعور دافعا قويا للتوجه بالحروب الصليبية نحو المشرق⁵.

وكانت انتصارات المسلمين سائلة الذكر وعن طريق الدعاية الغربية المتواصلة والشحن الديني المتواتر توحدَّ الشعور الغربي كله نحو هدف واحد وهو مواجهة المسلمين

⁴ الكامل في التاريخ ج8، ص 471 احداث سنة 484هـ. في سنة 457 كانت الحروب الكثيرة بين الزيرون والحماديين انظر، وابن كثير: البداية والنهاية، ج12، 92. وانظر كذلك البيان المغرب وابن خلدون
⁵ نورمان كانتور : التاريخ الوسيط ، ج2، ص405.

ومجابهة الاسلام الذي يهدد المسيحية في عقر دارها، وطعمته بآمال دفيئة لاستخلاص الأقاليم القديمة وبيت المقدس وما فيها من رموز مسيحية؛ وتؤكد للغرب أن أحوال المسلمين المشتتة مشرقا والمنتازعة مغربا باتت فرصة مغرية لايمكن تفويتها للقيام بالتنفيس على صدره مما تجرعه من مكبوتات القرون.

هكذا تبدو أعماق النفس الغربية من أصداء تجربة الحروب الصليبية تجربة ، حتى وإن بدا لكثير من الباحثين عوامل أخرى لاغنى عن بيانها لوجاهتها، ولكنها كانت تقعات كلها من هذا الوقود الصليبي، وتسير في ركابه، وتستغله لمصالحها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية التي لم تكن لتحقيقها لو كانت خلو اليدين منه.

إن الحروب الصليبية بهذا المعنى تنطوي على كثير من الأحداث التي تحولت بمرور الزمن إلى بؤر من الأوبئة الفتاكة تفتك بالبشر وتجعلهم تحت قاصف من الخوف والرعب والهلع أشد من الهلع الذي تعرضت له البشرية من وباء كورونا، وتعرضهم للمجاعة والتشرد والأمراض والقتل أضعاف مضاعفة ما تفعله جائحة كورونا؛ هذا الوباء الذي أنتج في مختبر التدين المحرف والمغشوش وكانت السنة الشحن العاطفي قد وصلت إلى مداها تجرف أمامها كل القيم والمبادئ والأخلاق الانسانية السامية، وانقلبت فيه الاحداث الاجرامية إلى بطولة، والتدمير إلى بناء، والاستغلال إلى تحضر، والقيم الانسانية النبيلة إلى مجرد اقنعة تستغل وقت الضعف والضرورة⁶.

ومن لوازم ضرورة دراسة الحروب الصليبية أنها كانت ولا تزال وستبقى معلما بارزا في رصد الاحداثيات المختلفة في مسار العلاقة بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، ومن ثم فإن دراستها بروية يسهم في فك أسرار هذه الاحداثيات بما فيها من ثبات وتغير، وصعود أو نزول، والوقوف على طبيعة هذه العلاقات، ومدى تأثيرها بالماضي وتأثيرها في الحاضر والمستقبل، وهل بإمكاننا أن نحدث خلخلة في عناصرها وإعادة قراءتها بما يتيح إعادة بناء علاقات جديدة مبينة على دروسها وعظاتها وكيف تمكننا من وضعها في سياقها التاريخي بحيث نتجاوز كل شحناتها الممتدة عبر الزمان والمكان، ورسم سياسات إنسانية جديدة لا تعيد المسار نفسه بل تعمل على تجنبه ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

⁶ جوناثان رايلي: تاريخ الحروب الصليبية ج1، ص 21، 22. نقلا عن رانيسمان: تاريخ الحملات الصليبية

إن مصطلح " الحروب الصليبية " له مدلوله التاريخي الذي نشأ فيه وحددته - كما هو واضح - النزعة التاريخية الغربية في توافق مع المد الصليبي في العصر الوسيط، ولم يستطع المؤرخون الغربيون تجاوزه إلى غيره رغم كل ما ظهر حوله من دراسات وأبحاث، لتجذره وترسخه في المخيال الجمعي للعالم الغربي.

وقد تحددت معالمه عند الغرب في ثمان حروب أو حملات، كان الاهتمام بها من وجهة نظرهم، غير أن الحقيقة أن هذه الحروب لم تتقطع إلى عصرنا الحالي⁷، وربما كانت كلمات الرئيس الأمريكي ريغان الابن عندما تقوه بمصطلح الحروب الصليبية عندما اجتاحت أمريكا العراق وسقوط بغداد سنة 2003 وقتل ملايين من العراقيين بسلاح الطيران والصواريخ الفتاكة، كلمات رئيس أمريكا كانت كافية لتأكيد استمرار هذا الشحن التاريخي الذي لا يزال له تأثير في أعماق الوجدان الغربي ويستغل من قبل أصحاب المصالح السياسية والاقتصادية والحضارية.

على أنه لا يمكننا أن نفهم الجولة الثانية من الحروب الصليبية (الحروب الصليبية المتأخرة، ونحن في بداية القرن الخامس عشر الهجري/ الواحد والعشرين للميلاد نعيش الجولة الثالثة من الحروب الصليبية) التي جاءت بعد الحملة الثامنة في شكل مشروعات استعمارية استيطانية⁸ إلا بدراسة أو الجولة الأولى من الحروب الصليبية (السلسلة الأولى أي الحملات الثمانية) التي نسج الغرب الصليبي على منوالها، لنكون على بصيرة بمدى تفاعل الغرب التاريخي بهذه الحروب التي لا يزال يراها جزءا من ثقافته ومشاعره تجاه الشعوب الأخرى، وإحياء للمجد الامبراطوري الروماني⁹.

⁷ يرى المؤرخ جوناثان رايلي سميث وآخرون أن الافكار والتصورات الصليبية لا تزال باقية في القرنين التاسع عشر والعشرين، انظر كتابه، تاريخ الحروب الصليبية، المركز القومي للترجمة، ترجمة قاسم عبده، ط1 2008 م، ج1، ص 10 من مقدمة الباحثين.

⁸ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة 1990 رقم 149 ، ص 11.

⁹ يقول نورمان كانتور في كتاب التاريخ الوسيط ، ج2، ص403: " في المفهوم الشعبي ترتبط حضارة العصور الوسطى ارتباطا فعليا بالحروب الصليبية، فالحادث الوحيد الذي يعرفه الخريج العادي من الجامعات الامريكية من بين حوادث القرن الحادي عشر هو بالضرورة الحملة الصليبية الأولى التي حدثت سنة 1095م".

- تعريف الحروب الصليبية/ الفرنجة:

لتعريف مصطلح الحروب الصليبية نقتبس ما أورده أحد المتخصصين في تاريخ الحروب الصليبية وتاريخ أوروبا في العصر الوسيط حيث يعرفها بأنها "حركة كبرى نبعت من الغرب الأوروبي المسيحي في العصور الوسطى، واتخذت شكل هجوم حربي استعماري على بلاد المسلمين وبخاصة في الشرق الأدنى بقصد امتلاكها. وقد انبعت هذه الحركة عن الاوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي سادت غرب أوروبا في القرن الخامس هجري/ الحادي عشر، واتخذت من استغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين ستارا دينيا للتعبير عن نفسها تعبيرا عمليا واسع النطاق"¹⁰.

وجرى الوضع في كتب التاريخ على تحديد المجال الزمني للحروب أو الحركة الصليبية بين سنتي 489هـ - 690هـ / 1096م - 1291م وهذا المجال يعني الدور الحاسم التقليدي في تلك الحركة وهو الدور الواقع بين الدعوة للحركة الصليبية الأولى وطرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام، وبين سقوط عكا سنة 690هـ/ 1291م. مع ملاحظة ان الحركة الصليبية لم تتوقف في الواقع طوال القرن الرابع عشر والخامس عشر، بل واستمرت كما مر بنا أعلاه إلى زماننا الذين نعيش فيه الموجة الثالثة من الحروب الصليبية على العالم الاسلامي.

وفي هذا المجال تم إعطاء ارقام لثمانية من الحروب الصليبية بينما كانت هناك حملات اخرى لم يعط لها الترقيم رغم انها كانت لاتختلف عن الاخريات، الاولى كانت عند وصول الحملة الصليبية الاولى إلى الشام. واتجهت اربع حملات إلى الشام (الاولى والثانية والثالثة والسادسة)، واثنان ضد مصر (الخامسة والسابعة)، وواحدة عرجت إلى القسطنطينية (الرابعة) واخرى نزلت بأفريقية تونس بشمال افريقيا (الثامنة).

وكان محركها منذ الحملة الاولى النفس الديني ومعه اهداف مستترة من السيطرة على بلاد الاسلام اقتصاديا واستعمارها سياسيا .

وترتيب الحملات الصليبية نورده في الجدول الاتي:

¹⁰ انظر عبد الفتاح عاشور: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، 2003م، ص 15.

ملاحظات	النتيجة	الوجهة	السنة	رقم الحملة الصليبية
مجازر رهيبية	احتلال بيت المقدس	الشام(بيت المقدس)	1096-1095/هـ489	الحملة الاولى
خلافات في صفوف الصليبيين	فشلت	الشام(دمشق)	/هـ543-540 1146 - 1148م	الحملة الثانية
	احتلال عكا	الشام (عكا)	-1187 /587-585 1189م	الحملة الثالثة
	احتلال القسطنطينية	القسطنطينية	/هـ601-599 1204-1202م.	الحملة الرابعة
	فشلت	مصر	1216 /هـ612م	الحملة الخامسة
استردت من قبل المسلمين سنة 642هـ/ 1244م	احتلال بيت المقدس صلحا	الشام(بيت المقدس)	1228/هـ625م	الحملة السادسة
أسر لويس التاسع في دار ابن لقمان ثم فدى نفسه	فشلت	مصر	1249 /هـ647م	الحملة السابعة
عقد الصلح بين الطرفين لمدة 15 سنة	انتهت بموت لويس التاسع بمرض وهو في الحملة سنة 669هـ	تونس(افريقية)	1270/هـ668م	الحملة الثامنة

- هل انتهت الحروب الصليبية؟

وإذا كان تاريخ الحروب الصليبية كثيرا ما يربط بقرنين من الزمان بين الخامس والسابع الهجري/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين فأنها لاتعدو أن تكون سوى **الموجة الاولى** من الحروب الصليبية، ذلك أن مشاعر هذه الحروب الصليبية انتقلت وورثت للأجيال الغربية اللاحقة، وبقيت قابضة في الوجدان الغربي الاوروبي بضرورتها التاريخية المثقلة بمشاعر الحقد والانتقام والثأر، في ظل نزعة العدوان والسيطرة التي تسري في الكيان والذهنية الغربية، وفاقم من شدتها تغير المعطيات السياسية والعسكرية وفارق التطور والثورة العلمية، واتخذت في العصر الحديث لباسا آخر ظهر في المشروع الاستعماري والاستيطاني الذي استهدف العالم الاسلامي .

وبعد سقوط الاندلس سنة 897هـ / 1492م بدأت معالم هذه **الموجة الثانية** بالظهور والتبلور، فظهرت الحروب الصليبية ضد المسلمين في الشمال الافريقي واحتلت كثير من المدن والمرافئ البحرية، في كل من المغرب الثلاث، واستتجد مغاربة المغرب الاوسط بالعثمانيين ضد هجمات الاسبان، وبقيت الاوضاع بين المد والجزر حتى نهاية القرن الثامن عشر بحملة نابليون على مصر ثم حملة فرنسا على الجزائر وانتشرت حمى الاستعمار على المسلمين بعد ذلك.

ولتأكيد روح الحملات الصليبية ضد المسلمين وأثناء أثناء الحرب العالمية الاولى دخل الجنرال الفرنسي **هنري جوزيف أوجين غورو** (Henri Joseph Eugène Gouraud 1867-1946م) دمشق وتوجه فورا إلى قبر صلاح الدين الايوبي عند الجامع الاموي وركله برجله وقال له: "ها قد عدنا يا صلاح الدين".

وأثناء الحرب العالمية الاولى عندما احتلت القدس من قبل القائد الانجليزي **النبي** (Edmund Henry Hynman Allenby ، الفايكونت الأول 1861-1936 م المندوب السامي للانتداب الفرنسي على الشام سوريا ولبنان 1917) قالوا إنها الحرب الصليبية الثامنة، وبومها قال اللينبي قولته المشهورة: "اليوم انتهت الحروب الصليبية".

وبعدما تحررت معظم البلاد الاسلامية وفي تصريح لـ "ول ايوجين روستو مستشار الرئيس جونسن(رئيس امريكا من 1963 إلى 1969م) للشرق الاوسط سنة 1967م عبر

فيه عن الجذور الصليبية والشعور المختزن في اللاوعي وفي عمق الذهنية الغربية تجاه الاسلام والعالم الاسلامي بقوله: " يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول وشعوب، بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية".

وفي السنوات الأخيرة وعندما تم احتلال عاصمة العباسيين ورمز الخلافة الإسلامية لقرون من قبل الاستعمار الأمريكي والمجازر الرهيبة التي تعرض لها المسلمون فيها حيث قتل أكثر من مليون نسمة من الاطفال والنساء واستخدمت الطائرات والصواريخ والقنابل المختلفة الاشكال والأحجام والصواريخ جو-أرض وفي هذا الجو من الدمار انتشى الرئيس الامريكى بوش الابن ليعلم أن حرب امريكا في بغداد ماهي إلا تنمة للحرب صليبية.

ثانيا: أهم المصادر والمراجع (كلها متاح تحميله على الانترنت).

- ابن الجوزي (ت 597هـ): المنتظم في تاريخ الملوك والامم.
- سبط ابن الجوزي (ت 654هـ/): مرآة الزمان في تواريخ الاعيان، ج19، ج20.
- ابن الاثير (ت 630هـ): الكامل في التاريخ.
- ابن عذاري (القرن السابع الهجري): البيان المغرب.
- أبو شامة (ت 665هـ): كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية.
- الذهبي (ت 748هـ) : تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام.
- اليافعي (768هـ) : مرآة الجنان وعبرة اليقظان.
- ابن كثير (ت 774هـ): البداية والنهاية.
- ابن خلدون (ت 808هـ): العبر.
- المقرئ (ت 845هـ): السلوك لمعرفة دول الملوك.
- سهيل زكار: الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (موسوعة كبيرة).
- حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي.

- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس.
- عبد الفتاح عاشور: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب-
- شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامي.
- محمد بن المختار الشنقيطي: أثر الحروب الصليبية على العلاقات السنية الشيعية (رسالة دكتوراه في أمريكا مطبوعة).
- سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية .
- محمد سهيل طقوش: تاريخ الحروب الصليبية.
- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية.
- محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب
- علي سعود العطية: تاريخ الحروب الصليبية.
- نورمان ف. كانتور: التاريخ الوسيط قصة حضارة البداية والنهاية.
- فشر: تاريخ أوروبا في العصر الوسيط.
- ستيفن رانسيمن: تاريخ الحملات الصليبية.
- جوناثان رايلي سميث: تاريخ الحروب الصليبية.

المحاضرة الثانية

" أوضاع العالم الاسلامي قبيل الحروب الصليبية "

عناصر المحاضرة:

1- الخلافة العباسية ببغداد.

2- حالة البلاد الشامية.

3- حالة مصر.

4- الحالة بأفريقيا وصقلية والأندلس.

إن التعرف على الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في العالم الإسلامي قبيل الحروب الصليبية تطلعا على عناصر الضعف وحجم التآكل والاحتراب الداخلي الذي تغلغل لعقود في جسم الأمة الإسلامية، ونخر عظامها وجعلها عرضة لأي عدوان خارجي. كما تضعنا أمام الواقع الفعلي الذي كان وراء تطلعات الصليبيين وتحفيزهم على الاندفاع وبقوة في حروب شرسة ودموية مكلفة ماديا وبشريا نحو السيطرة على العالم الإسلامي واختراقه في عقر داره وفي عمقه الروحي والعاطفي في بيت المقدس.

كان العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر للميلاد يتكون من المشرق والمغرب والأندلس.

ففي المشرق كانت الخلافتان المتعديتان العباسية الضعيفة ببغداد والفاطمية المريضة بمصر تعادي كل منهما الأخرى. أما المغرب الاسلامي فنتقاسمه دولة الزيريين الصنهاجيين في المغرب الادنى(افريقية) ودولة الحماديين ابناء عمومة الزيريين بالمغرب الأوسط، ودولة المرابطين في المغرب الاقصى، وإذا كانت العلاقات بين الحماديين والمرابطين تميل إلى حسن الجوار فإن ما كان يتحكم في العلاقة بين ابناء العمومة الزيريين والحماديين وبين

الصنهاجيين والزناتيين هو المنافسة الشرسة التي كانت تضطرم حروب متواترة لاتكاد تنتهي حتى تشتعل¹¹.

أما في الاندلس فإنها كانت تعيش زمن دول ملوك الطوائف الذين جاءوا على جثة الخلافة الاموية بهم نمط الحكم الذي توارثوه عن الحاجب المنصور الذي سن غلبة القوة واستبد بالحكم بعد أن كانت للاسرة والقبيلة. ، ولم يفلحوا سوى في صناعة أجواء العداء السياسي والصراع القبلي والتمزق الاجتماعي وتمكنت منهم الفرقة والتشردم أيما تمكن حتى تنافسوا في الاقتتال وفي اطماع العدو الصليبي المتربص بهم، بعد أن أصبحوا يستتجدون به ضد إخوانهم في الدين.

1- الخلافة العباسية ببغداد:

كانت الخلافة العباسية في بغداد تعيش في القرن الخامس في حالة يرثى لها من الفوضى والاضطراب، ففي عهد البويهيين (عصر النفوذ البويهي الفارسي: 334-447هـ) كان العداء مستحكما بين المتنفذين في السلطة من آل بني بويه الشيعة وبين الخليفة العباسي وعامة الناس السنيين. وكانت الفتن والثورات تترى على المنطقة تملؤها رعبا ورهبا. ولما تولى القائم بأمر الله الخلافة العباسية (422-467هـ) ازدادت الاوضاع سوءا ونفشت مظاهر الغضب والنهب، وكثر شغب الجند والديلم والترك والغلمان إلى أن وقع السيطرة على بغداد من قبل السلاجقة سنة 447هـ(العصر الرابع: عصر النفوذ السلجوقي: 447-656هـ). وأزالوا سلطنة بني بويه.

كان السلاجقة قوة جمع للمسلمين فقد عظمت قوتهم وسياستهم وخاصة في عهد السلاطين (طغرل بك، ألب ارسلان - ملكشاه).

وقد اشتهر السلطان ألب أرسلان بفتوحاته في اسيا الصغرى وانتصاره على امبراطور الروم رومانوس ديوجونيس في معركة منزكر (ملاذكرد mantzikert) (463هـ/1071م) شمال بحيرة "وان" وسيطر على ارمينيا وبلاد الاناضول إلى شواطئ بحر مرمرة وأصبحت القسطنطينية مهددة بالفتح.

¹¹ ابن عذاري: البيان ، ج1، ص 275.

ولكن عظمة السلجوقيين لم تدم طويلا فبعد وفاة ملك شاه سنة 485هـ انقسم البيت السلجوقي وانفرط عقد السلطنة السلجوقية التي كانت تمتد من الصين شرق إلى سواحل الشام غربا، ومن الاناضول شمالا إلى اليمن جنوبا، وهكذا كانت البلاد تعيش في فوضى على اعتبار الحروب الصليبية .

2- حالة البلاد الشامية:

في مطلع القرن الخامس الهجري/11م كانت بلاد الشام وهي مريط الفرس تئن تحت مخلفات السياسة المريضة والفوضى المتفشية للحاكم بأمر الله الفاطمي، وفي أول عهد خلفه الظاهر تكاد سورية ان تكون خارجة عن نفوذه فقد استولى على حلب صالح بن مرداش سنة (415هـ/1025م) وأغار حسان بن جراح الطائي على أكثر بلاد الشام وفلسطين، وتكررت الحوادث سنة 429هـ.

واستمر الحال على الاضطراب حتى افتكها السلاجقة من الفاطميين. ولم تسلم هي عهدهم من الاضطراب والانقسام وعندما حانت الحروب الصليبية كانت الشام مقسمة بين ابناء السلاجقة الامراء المتنازعين بينهم، وهم:

- فأنطاكيا كانت تحت إمارة باغيسيان التركماني،

- ودمشق كانت لرضوان بن تنش ابن الب ارسلان.

- وبيت المقدس للامير سقمان بن ارتق التركماني

3- مصر:

كانت مصر في هذه الفترة في ظل الخلافة الفاطمية مسرحا للثورات الداخلية، والمنازعات بين الطوائف المختلفة من مماليك أتراك ، وسودانيين، ومغاربة من قبيلة كتامة. وكانت الاغتيالات تطال الخلفاء والوزراء و القضاة والعلماء وتدبر بأشكال مختلفة وأساليب متنوعة.

كما كانت مصر تتعرض إلى القحط والأوبئة والمجاعات والجفاف وما يترتب عليها من تدهور في المعيشة وأثر ذلك على المجتمع.

بدأ القرن الرابع الهجري/العشر للميلاد في مصر وحاكمها هو الخليفة الفاطمي الحاكم لأمر الله (386-411هـ/1021م) الذي تشير المصادر إلى أنه كان سفاكا للدماء¹² وخاصة المقربين إليه من الخدم والوزراء والقضاة، أما غيرهم فكان لا يرى بأسا في قتل أي كان، ولا يعرف رحمة ولا حرمة للنفس الانسانية ولا للمروءة والاخلاق، وطال سطوته على مختلف طبقات المجتمع قادة أو عامة علماء أو عوام رجالا أو نساء، تجارا أو معدمين، مسلمين أو مسيحيين¹³، وبات أهل مصر يعيشون الرعب المستديم ولم يكن لهم معه أي رد فعل¹⁴.

وفي عهده كان الصراع بين المغاربة من جهة والمشاركة والأتراك من جهة ثانية كانت التحكم في السنة الاولى للمغاربة ثم كانت الكفة راجحة للاتراك بعد ذلك.

وتمت وفاته بطريقة الاختفاء التي برع الشيعة في تسويقها للحكام والدعاة الكبار عندهم ، وبعد البحث عنه لمدة خمسة أيام لم يعثر له على أثر إلا من خلال ما تبقى من لباسه الذي يحوي طعنات متعدد¹⁵. كما تشير إلى أن اخته الكبرى سيدة الملك ربما كانت وراء اغتياله مع سيف الدولة الحسين بن دواس الكتامي بعد ان اتهمها الحاكم في شرفها¹⁶.

¹² محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله واسرار الدعوة الفاطمية، ص 105.

¹³ بأمر من الحاكم تم هدم كنيسة القيامة في بيت المقدس وكان لذلك آثار كبيرة على الحملة الصليبية الاولى ، وهذا الفعل فعل اضعافه في المسمين وفي اقرب الناس اليه، غير أنه في زمن الظاهر تم إعادة بنائها حيث وقعت هدنة بين الظاهر وبين ملك القسطنطينية وذلك سنة 418 هـ ، انظر، المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 176.

¹⁴ انظر في ذلك، المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 120-121 يقول: "وعم بالقتل بين وزير وكاتب وقاض وطبيب وشاعر ونحوي وعن ومختار وصاحب ستر وحمامي وطباخ وابن عم ، وصاحب حرب وصاحب خبر ويهودي ونصراني".

¹⁵ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 120.

¹⁶ نفسه، ج2، ص 115-116.

وكانت مدة خليفته ابنه الظاهر (411-427هـ) تكتنفها الفوضى وحدثت بها مجاعة كبيرة بين سنتي 415-417هـ¹⁷ واقتتل فيها المغاربة والاتراك. وفشى فيها الاوبئة والطاعون¹⁸ الذي لم ينج منه حتى الخليفة الظاهر¹⁹.

أما عهد الخليفة المستنصر (427- 487) فيمثل عهد اقتطاع أجزاء من الدولة الفاطمية، حيث أعلنت تونس الزيريين انفصالها من قبل المعز بن باديس سنة 440هـ²⁰. كما انتزع السلاجقة القدس وفلسطين ودمشق من سيادة الفاطميين سنة 469هـ.

أما حالة مصر الداخلية فكانت في غاية الفوضى والتشردم، حيث تقلد الوزارة اربعون وزيرا في ظرف تسع سنوات، ثم حدثت مجاعة كبرى استمرت من 458-465هـ أكل الناس فيها لحوم البشر²¹، ثم جاء دور الخليفة المستعلي بالله ابن المستنصر 487-495هـ الذي كان من اضعف الخلفاء وظهرت في عصره الحروب الصليبية²².

4- الحالة بأفريقيا وصقلية والاندلس:

في اوائل القرن الخامس الهجري تولى المعز بن باديس الصنهاجي على افريقية(406-453) فكانت مدته مملوءة بالاحداث الجسام والتحولات، الثورة الدموية بين الشيعة والسنة، وثورة حربية بينه وبين ابن عمه حماد بن بلكين الذي استقل بالدولة الحمادية، وثورة انفصالية لزناتة في طرابلس الغرب .

ثم اعلان المعز بن باديس لقطع الخطبة للفاطميين، وخروج اغلب البلاد عنه ، ثم زحف الاعراب الهلاليين وعمت كامل البلاد الفوضى من برقة إلى القيروان

ولما جاء خلفه **تميم بن المعز بن باديس(453-4501هـ)** كانت مدته اشد اضطرابا واكثر فتنة، ويعتبر عصره في بلاد المغرب شبيها بعصر ملوك الطوائف في

¹⁷ نفسه، ج2، ص 142، 164، 165، 169، 171.

¹⁸ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 182.

¹⁹ العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص 15.

²⁰ ابن عذاري : البيان، ج1، ص 277. اليافعي: مرآة الجنان، ج 3 ص 49.

²¹ ابن الجوزي: المنتظم، ج 16، ص 116-117.

²² العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص 15.

الاندلس ، فقد ثارت ضده مدن تونس سوسة صفاقس قابس والجريد وتمونت فيها إمارات مستقلة، واصبحت المهديّة عرضة لهجومات الجنويز والبيزان pizanes للسلب والنهب. وتعرضت للمجاعة والجفاف والوباء سنة 483هـ / 1090م.

صقلية ونظرا لما آل إليه بناؤها من التقاتل فقد استغل النورمان هذه النزاعات وكرروا مدهماتها حتى سقطت نهائيا في يد النورمان سنة 484هـ / 1091م فكانت الشهيدة الاولى التي ذهبت ضحية الاهمال، واصبحت الشواطئ الاسلامية عرضة لغارات النورمان من بجاية إلى طرابلس.

أما الاندلس فقد مرت في القرن الخامس بعصر ملوك الطوائف المتقاتلين المتناحرين المتعاونين مع النصارى والمستجدين بهم ضد إخوانهم، ثم ضياع طليطلة سنة 478هـ / 1085م من قبل الفونصو السادس. ورغم نجدة الاندلس من قبل الامير يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة، سنة 479هـ / 1086م إلا أن ذلك لم يرجع طليطلة مما يؤكد أن الاندلس في خطر داهم.

الخلاصة أن حالة الامة الاسلامية مشرقا ومغربا في عمومها كانت مغرية للصليبيين بأن يقوموا بالهجوم عليها وهي في اتعس الحالات. وهي فرصة كان الغرب الصليبي ينتظرها منذ أمد بعيد، تحركه في ذلك كل انواع التريص.

يمكننا أن نضيف إلى ذلك ظهور بعض الحركات المذهبية التي ساهمت في عملية الاريك للمجتمع الاسلامي السني بالخصوص ونخص بالذكر كلا من القرامطة والحشاشين حيث كان لهاتين الفرقتين مناكر كبيرة في تشنيت قوة الدول الاسلامية وقتل زعمائها، والتعاون مع الصليبيين.

كما كان المجتمع في ظل هذه الاوضاع السياسية والاقتصادية يعيش في أجواء الخرافة التي كانت متفشية في البلاد المشرقية والمغربية بشكل مثير فقد ذكر ابن الجوزي في أحداث 456هـ²³ قصة شاعت وانتشرت ببغداد تحكي بأن قوما من الاكراد خرجوا للصيد فرأوا في البرية خيما سودا فيها لطما شديدا وعويلا كبيرا، وسمعوا بها قائلا يقول بأن ملك

²³ ابن الجوزي: المنتظم، ج16، ص 87. ونقله عنه ابن كثير في البداية والنهاية، ج12، ص 91.

الجن سيدوك قد مات، وأي بلد لا يُقيم فيه مآتم ولم يُلطم عليه قلع أصله وأهلك أهله، " فخرج النساء العواهر من حريم بغداد إلى المقابر يلطنن ثلاثة أيام ويخرقن ثيابهن وينشرن شعورهن ، وخرج رجال من السفساف يفعلون ذلك،، وفعل هذا في واسط، وخوزستان من البلاد"، وعقب ابن الجوزي على ذلك بقوله: "وكان هذا فنا من الحمق لم ينقل مثله" وهو إقرار بتردي الحياة العقلية إلى دركات مريبة من الشعوذة والدجل والخرافة، كاشفة عن الذهنية المتردية التي يعيشها المجتمع في هذا العصر.

وإذا حدث ذلك في الحواضر الكبرى والمدن السياسية والعلمية للخلافة الإسلامية فكيف يمكننا تصور حالة الدجل والخرافة المسيطرة على العامة بالمناطق الاخرى الاقل شأنًا منها؟.

المحاضرة الثالثة

"المجتمع الأوروبي قبيل الحروب الصليبية"

ما يوضح حقيقة الحروب الصليبية هو معرفة الحالة التي كانت تعيشها أوروبا قبيل حدوثها، من الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكل ذلك يوفر لنا رؤية دقيقة عن الدوافع الكامنة والمغرية للحروب الصليبية.

1- الحياة الدينية:

كانت أوروبا قبيل الحروب الصليبية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي/الرابع والخامس الهجري، تعيش تحت سيطرة الكنيسة الكاثوليكية دينياً وسياسياً واجتماعياً وعسكرياً²⁴. فقد كانت الشعوب رهن الكنيسة الكاثوليكية وكان ثقتها بالأمرأ مرتبطة بمدى الثقة التي تمنحها لهم الكنيسة، ويكفي ان تسحب الكنيسة ثقتها من الملوك والأمرأ حتى يكونوا عرضة للتتحي من قبل شعوبهم، وكان للبابا سلطة دينية قوية جعلته في المجتمع الغربي في مرتبة أعلى من السلطة السياسية بل لايمكن للسلاسة أن تكون لها كلمة إلا بعد أن تتال رضا البابا.

ويكفي للدلالة على قوة البابا في ذلك الوقت أن نذكر موقفاً للبابا جريجوري السابع (1073-1085م) مع الإمبراطور الألماني هنري الرابع. لقد كان الإمبراطور الألماني أقوى ملوك أوروبا في زمانه، ومع ذلك فقد غضب عليه البابا في أحد المواقف (تعيين بعض القساوسة في الاسقفيات الشاغرة)²⁵، ورفض الإمبراطور الاعتذار للبابا، فقام البابا بسحب

²⁴ انظر في ذلك، السرجاني : قصة الحروب الصليبية ص 38 .

²⁵ تبلور النزاع بين البابا جريجوري السابع والإمبراطور هنري الرابع حول شغل بعض الأسقفيات الشاغرة وبخاصة في شمال إيطاليا، إذا أصر كل من البابا والإمبراطور علي أن لكل منهما الحق في سيامة الأساقفة وتمسك كل منهما برأيه لأنه رأي أن في انتصار خصمه تحطيماً للمبدأ الذي يسعى هو من اجله!!...فهنري الرابع وجد في تمسكه برأيه أمر تتوقف عليه هيئته في إيطاليا وغير إيطاليا من بلاد الإمبراطورية، لذلك أسرع بتعيين اثنين من أتباعه على أسقفيتي فرمو fermo وسبوليتو spoletو ، على الرغم من أن هاتين

الأسقفيتين تقعان فعلاً في دائرة اختصاص البابا... أما جريجوري السابع فقد تمسك من جانبه بالسمو البابوي بحكم أن البابا خليفة السيد المسيح على الأرض ووريث القديس بطرس في الغرب، كما اعتبر نجاحه في فرض رأيه على الإمبراطور أمراً تتوقف عليه هيئته ومستقبل البابوية، فضلاً عن سياسته في الإصلاح الكنسي - وهي السياسة التي شرع فعلاً في تنفيذها!!!.

ثم تآزم الموقف بشكل خطير عندما عين الإمبراطور هنري أسقفًا جديدًا لميلان هو الأسقف تدالد tedald في عام 1075، وحينئذ أدرك البابا أنه لا بد من العمل السريع، ويبدو أن البابا جريجوري السابع كان مستعدًا للتحدي والصراع.

أرسل رسالة شديدة اللهجة إلى هنري الرابع في أواخر عام 1075 انذره فيها بالعزل وهدده بالويل والعذاب أن هو لم يخضع لرأي البابوية، وفي ذلك الوقت ثارت ثائرة الإمبراطور فعقد تجمعاً في ورمز worms في يناير 1076 قرر فيه بطلان انتخاب البابا جريجوري السابع بل وعزله من منصبه... وعندما سمع البابا بذلك القرار قابله بهدوء، ودعا هو الآخر بعقد مجمع في الفاتيكان في فبراير 1076 قرر فيه توقيع الحرمان على هنري الرابع وعزله من منصبه وتحريم جميع رعاياه وأتباعه من إيمان الطاعة والتبعية التي اقسموها له.. وبذلك بدأت الحرب بينهما ومع أن موقف الطرفين كان حرجاً وصعباً إلا أنه من الواضح أن هنري الرابع وجد نفسه في موقف أصعب من خصمه، لأن البابا كان يستطيع أن يعتمد على عطف كثير من أبناء العالم المسيحي بوصفه الأب الروحي للكنيسة، في حين كان هنري الرابع لا يستطيع حتى الاعتماد على ولاء رعاياه بعد أن وقع عليه البابا قراره بالحرمان بوصفه مسيحياً وعقوبة العزل بوصفه ملكاً.... وبعبارة أخرى فإن كفتي البابوية والإمبراطورية لم تكونا متعادلتين أبداً عند بداية النزاع بل طيلة أدوار النزاع الآتية. . والواقع أن الإمبراطور لم يجد له نصير سوى تلك الفئة قليلة العدد من رجال الدين والإيمان الذين عرفوا بالسيمونية وسوء السيرة، وهؤلاء لم يكن لهم من النفوذ أو المقومات الخلفية ما يجعل منهم سنداً حقيقياً للإمبراطور، أما ذو المكانة من القديسين وكبار رجال الدين فقد شايعوا جميعاً البابوية في موقفها المعادي للملك....

وهكذا تلفت هنري الرابع حوله فلم يجد من يعتمد عليه من الدوقات والأمراء، إذ كانوا جميعاً يخشون نزعته الاستبدادية، فكان أن عقد أمراء ألمانيا وأساقفتها مجمعاً في تريبور tribur في أكتوبر 1076 وقرروا فيه الخروج على طاعة هنري الرابع وإنذاره باختيار إمبراطور غيره على ألمانيا إن لم يغفر له البابا في مده أقصاها فبراير 1077 علي أن يقضي الفترة ما بين أكتوبر 1076 وفبراير 1077 في أحد الأديرة محروماً من الإمبراطورية... وكان أن انسحب هنري الرابع إلى ذلك الدير الذي جعل يفكر فيه في حاله، وإن كان الموقف لم يكن في حاحه إلى تفكير، ذلك أنه وجد نفسه وحيداً أمام خصم عنيد لا يرحم، فلا بد له من التراجع والاستسلام إذا أراد إنقاذ عرشه، مما تطلب من هنري الرابع سرعة العمل قبل أن يجتمع أعداؤه في ألمانيا فيؤدي ذلك إلى مظاهره عدائية ضد الملك تضعف مركزه وتجعل البابا يتشدد في موقفه.

وأخيراً لم يجد الإمبراطور هنري الرابع حلاً أمامه سوى أن يرحل سراً إلى البابا، في الوقت الذي كان البابا قد بدأ رحلته إلى ألمانيا، ولكنه أسرع عندما علم أن خصمه هنري الرابع عبر الألب ساعياً إليه، واحتمى البابا في قلعه "كانوسا" التابعة لماتيلدا ملكة تسكانيا، وكان البرد قاسياً عندما اخذ هنري الرابع يصعد الطريق

الثقة منه، وأعلن حرمانه من الرضا الكنسي، وبالتالي حرمانه من الجنة كما يزعم ! وبدأ الناس يخرجون عن طوعه، بل وكاد أن يفقد ملكه، فنصحه مقربوه بالاعتذار الفوري للبابا، فماذا يفعل الإمبراطور الألماني الكبير؟! لقد قرر أن يأتي من ألمانيا إلى روما ماشياً حافي القدمين! وذلك حتى يظهر ندمه الشديد على إغضابه للبابا. ثم كانت المفاجأة أن البابا رفض أن يقابله لمدة ثلاثة أيام كاملة، فبقي الإمبراطور خارج الكنيسة في المطر والبرد

الجبلي الوعر إلى قلعة كانوسا، حيث بقي ثلاثة أيام واقفاً على الجليد أمام أبواب القلعة الموصدة في وجهه، حتى تعطف عليه البابا وسمح له بالمثل بين يديه على شرط بأن يسلم للبابوية بكل ما تطلبه دون أي قيد وكان ذلك في يناير 1077... ويُقال أن الإمبراطور دخل على البابا حافي القدمين مرتدياً ثوباً من ثياب الرهبان المصنوعة من الصوف الخشن، حتى إذا ما وجد نفسه أمام خصمه ارتمي عند قدميه وانفجر باكياً وهو يصيح " اغفر لي يا أبتاه المقدس "

... الجدير بالذكر ان البابا غفر له بعد أن فرض عليه شروطاً قاسية وزوده بالنصح والإرشاد، وقد اكتسب بهذا هنري الرابع غفران البابا وطالب بولاء رعاياه ولكن بعد أن دفع الثمن غالياً، كلفه كرامته ومكانته، فما هو حاكم الإمبراطورية العظيم بذل نفسه أمام البابا ويعترف للبابوية بحقوقها كاملة حتى حرمانه من رعاية الكنيسة وعزله من منصبه، وأن يقف البابا منه موقف الحكم بينه وبين شعبه أن شاء أمرهم بالخروج على طاعته، وان شاء أمرهم بالامتثال له، لذلك ليس من المبالغة أن نقرر أن الضربة التي أنزلها البابوية بالإمبراطور في كانوسا كانت قاصمه، وان الأخيرة لم تسترد هيبتها ومكانتها السابقة، غير أن الامبراطور لم ينس الذي حدث له مع البابا فما ان استقر له الامر واسترجع قوته ونفوذه حتى اعلن تحديه للبابا جريجوير للمرة الثانية مما حدى بالبابا بإصدار قرار الحرمان للمرة الثانية مما جعل الامبراطور او يرسل جيشا إلى روما ومحاصرة البابا، واستدعي البابا من قبل الامبراطور هنري الرابع ومقابل سلامته فرض عليه أن يتوجه امبراطورا رومانيا ورفض البابا ان يضع التاج على رأس الامبراطور إلا عن طريق حبل، مما اعتبره الامبراطور تقليلا من قوته وكرامته فأعلن تحية البابا ونصب بابا آخر قام بتتويجه امبراطورا رومانيا.

أما البابا جيجوري فقد استنجد الحاكم النورماندي لجنوب ايطاليا "برويارت جويسكارد"، على رأس جيش تم تشكيله بشكل اساسي من المسلمين، واستطاع أن يطرد هنري من روما، واتبع ذلك بعمليات سلب ونهب للمدينة روما واسر عدة آلاف من أهلها وتم بيعهم كعبيد. أما غريجوري فقد أصبح ممقوتا من قبل كل الكرادلة وهاجر مع الجيش النورمندي إلى جنوب إيطاليا ولم يلبث حتى توفي ذليلا .

الشديد حتى سمح له البابا بالمقابلة، فما كان من الإمبراطور إلا أن ارتدى على الأرض يُقبل قدامي البابا ليصفح عنه²⁶!!

2- الإقطاع الكنسي:

وكانت الكنيسة الكاثوليكية في روما هي الكنيسة الكبرى المتحكمة في كل كنائس أوروبا ومن ثم يستطيع البابا السيطرة على الأحداث في البلاد المختلفة.

ولم تكن الكنيسة مكانا للعبادة فحسب بل كان لها نفوذ كبير من الناحية المالية إذ كانت تمتلك اموالا طائلة تأتيها سنويا من إيرادات الرعايا، وكانت تمتلك الأقطاعات الكبيرة في أوروبا، كما كانت لها فرقها العسكرية التابعة لها والضامنة لحمايتها. وكانت الكنيسة تتحالف مع فرق عسكرية أخرى عند الحاجة، ومن هنا أصبحت الكنيسة تمثل الحاكم الحقيقي لمعظم دول أوروبا الغربية.

لقد كانت الروح الكنسية اول الامر قائمة على المودة والمحبة والإيحاء وحب السلام ولكنها لم تلبث ان اصبحت مصدرا لحروب دموية و خاصة بعدما نظر لها سانت اوغسطين الذي برر لحماية الدعوة المسيحية كل انواع العدوان لأجلها كما ان دخول العناصر المتبريرة في الدين المسيحي و احتفاظها لنزعتها الحربية حول الروح الكنسية من السلام الى ارادة الحرب بالإضافة الى ذلك الروح التي كانت سائدة بين الفرسان والاشراف وميلهم الى الحروب و المخاطر في سبيل الدفاع عن الكنيسة ورغبتهم في تكوين امارات في الشرق .

ومع كون الكنيسة تحتل في هذا الوقت هذه المكانة الكبيرة إلا أن القساوسة كانوا على درجة كبيرة من الجهل والتخبط، ولم يكن لهم في الغالب أي كفاءة دينية أو إدارية أو قيادية، ولم يكن هذا فقط، بل إن معظم البابوات في القرن التاسع والعاشر الميلادي كانوا على درجة كبيرة من الفساد الأخلاقي، سواء في قضايا المال أو في قضايا النساء، وكثير منهم قُتل في حوادث أخلاقية مخلة، مع أنهم جميعًا كانوا يدعون الرهبانية، ويعلنون اعتزالهم مُنَع الحياة،

²⁶ انظر القصة الكاملة بين البابا والامبراطور الالمانى في، موريس بيشوب : تاريخ اوربا في العصور الوسطى، ترجمة علي السيد علي، المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة، ط1، 2005م ص 53-56. عبد الفتاح عاشور: تاريخ اوربا في العصور الوسطى ص 311-318.

ويشيعون الزهد في الدنيا، ويمتنعون عن الزواج، ثم يرتكبون بعد ذلك أبشع جرائم السرقة، وكذلك الزنا.

وكان الدين عندهم قائماً على الخرافات والأباطيل، وكانت تسيطر عليهم فكرة الأشباح والأرواح والخوارق (والأمراض كانت تداوى بإخراج الجن وكثيراً ما يحدث القتل بينما كان المسلمون ماهرين في الجراحة) (قصة ذلك المريض الذي قتل بضربة فأس) مثلما يحدث في مجتمع ريفي بسيط، وكان هذا الوضع المتدني يساعد البابوات والقساوسة في السيطرة على عقول الناس عن طريق نشر الإشاعات والأوهام، وعمليات غسيل المخ التي تمحو كل فرصة للتفكير عند الشعوب.

ومن الأفكار المهمة التي أشاعها البابوات والقساوسة في القرن الحادي عشر - أي قبيل الحروب الصليبية بقليل - **أن الدنيا على وشك الانتهاء، وأن يوم القيامة قد اقترب جداً، وأن هذا مرتبط بمرور ألف سنة على نهاية عهد المسيح، أي أن هذه الإشاعة بدأت تنتشر في سنة (424هـ) 1033م تقريباً وما بعدها، وكانوا يفسرون كل الظواهر الكونية والطبيعية في ذلك الوقت على أنها أدلة على صدق الإشاعة، ومن ذلك مثلاً ثورة بركان فيزوف في إيطاليا، أو حدوث بعض الصواعق أو الزلازل.**

وكان لانتشار مثل هذه الشائعات الأثر في إحداث حالة من الوجل والرعب والهلع عند عموم الناس، وخوفهم المفرط من ذنوبهم، وبروز دور البابوات والقساوسة والكنيسة بصفة عامة لإنقاذ الناس من هذه الضغوط، ومساعدتهم على التخلص من هذه الذنوب، وضرب رجال الدين على هذا الوتر بشدة، واستغلوه في توجيه الناس إلى ما يريدون، وقد كان من أهم الوسائل للتخلص من هذه الذنوب دفع الأموال للكنيسة، وهو الأمر الذي تطور بعد ذلك إلى صكوك الغفران، التي ثار عليها بعد ذلك بقرون مارتن لوثر²⁷ مؤسس البروتستانتية.

²⁷ مارتن لوثر (1483-1546م) راهب وقسيس الماني: هو الرجل الذي ثار على الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، واستهل بذلك مرحلة الإصلاح الاحتجاجي على الكنيسة - أي صاحب نظرية البروتستانتية.

غير أن هناك وسيلة أخرى أشاعها البابوات والقساوسة للتخلص من الذنوب لها علاقة كبيرة بموضوعنا، وهو التشجيع على رحلات الحج إلى أرض فلسطين مهد المسيح، وذلك للتكفير عن الذنوب، وكانت رحلات الحج التكفيرية هذه تستغرق من الناس جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً، قد يصل إلى سبع سنوات، وكانت هذه الرحلات بديلاً عن دفع المال الكثير للكنيسة، ومن ثمَّ رغب فيها الفقراء الذين لا يستطيعون شراء رضاء الكنيسة، ومن هنا توالى رحلات الحج لفلسطين، والتبرك بالآثار هناك، وأصبحت هذه الرحلات ثقافة عامة عند الناس؛ ولذلك انتشر اسم فلسطين، وصار متداولاً بين عموم الناس.

ولا شك أن هذه الثقافة مهّدت الشعوب الغربية نفسياً لقبول فكرة الحروب الصليبية بعد ذلك، فهي تذهب إلى مكان مألوف محبوب سمع الناس كثيراً عنه، بل وشجّعوا على الذهاب إليه، بل إن فلسطين صارت حُلماً لكثير ممن يريد الذهاب للتخلص من ذنوبه قبل انتهاء الدنيا، غير أنه يفتقد الطاقة البدنية أو المالية ليقوم بالرحلة، وكل هذا - لا شك - أدى إلى تضخيم حجم فلسطين في عيون الغربيين.

وتشير الكثير من المصادر والوثائق أن استقبال المسلمين الذين يحكمون الشام وفلسطين لهؤلاء الحجاج كان استقبالاً طيباً جداً، ولم يثبت أي محاولات تضيق عليهم كما يحاول البابوات أن يشيعوه لكي يسوّغوا فكرة الهجوم على فلسطين لتسهيل رحلات الحج لنصارى أوروبا. فهذه الخلفيات الدينية المعقدة من رغبة حثيثة للكنيسة للسيطرة على عقول الناس وأموالهم، ومن خوف مطرد عند الشعوب من فناء الدنيا وكثرة الذنوب، ومن حبّ جارف لهذه الأرض التي وُلد بها المسيح، والتي بسبب الرحلة إليها ستُغفر الذنوب؛ كل هذا وغيره مهّد لفكرة الحروب الصليبية وغزو فلسطين.

ولعل الخلفيات التي يجب أن تضاف إلى هذه الأمور السابقة، والتي تفسّر ولع الغرب بقضية فلسطين خصوصاً والشرق عمومًا، هي ظهور رغبة عند بعض بابوات روما لضم الكنيستين الغربية الكاثوليكية والشرقية الأرثوذكسية تحت سقف واحد، يحكمه الكاثوليكيون بالطبع، وكان الذي تبنّى هذا المشروع بقوة هو البابا جريجوري السابع، وهو البابا السابق مباشرة للبابا أوربان الثاني الذي وقعت في عهده الحروب الصليبية. وكان من ضمن الخطوات التي أخذها البابا جريجوري السابع لإتمام هذه الخطوة الفريدة أن بدأ يحسّن

من علاقاته مع الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين²⁸، وهو الإمبراطور الذي سيعاصر الحروب الصليبية؛ مما جعل المراسلات بينهما مستمرة، ومما حدا - بعد ذلك - بالإمبراطور البيزنطي أن يستغيث بالغرب الكاثوليكي لنصرته ضد السلاجقة المسلمين، وذلك مع شدة كراهية هذا الإمبراطور الأرثوذكسي لكل بابوات وملوك وشعوب أوربا الكاثوليكية.

²⁸ عن هذا الموضوع، انظر: إسحاق عبيد: روما وبيزنطة - من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني قنسطنطين 869-1204م، ص 25-39.

المحاضرة الرابعة

"أسباب الحروب الصليبية"

تعددت الأسباب التي دفعت بالصليبيين إلى الاعلان الرسمي للمعركة الفاصلة والمجابهة العسكرية الشاملة ضد المسلمين، ويبدو انها كانت ضمن دافعين اساسيين:

الاول : طول المدة التي رأى فيها الصليبيون المسيحيون ان المسلمين استطاعوا خلال القرون السابقة اكتساح كثير من مناطق العالم الاسلامي إن في الشرق والغرب والاندلس على السواء.، وكانوا يتحينون الفرصة تلو الاخرى ويضمرون حقدا ينمو كل يوم، والهدف من ذلك كله ضرب الاسلام في عمقه حتى لا يفكر من جديد في التوجه إلى العالم المسيحي.

الثاني: الطمع الذي سيطر على نفوسهم من أجل السيطرة على موارد المسلمين بشتى الطرق والاساليب²⁹.

ويمكننا أن نجمل الأسباب في العناصر التالية:

السبب الأول: تهديد القسطنطينية من قبل السلاجقة.

بعد معركة ملازكرد التي انتصر فيها المسلمون السلاجقة انتصارا باهرا على البيزنطيين شعر البيزنطيون بالتهديد الحقيقي لعاصمتهم القسطنطينية التي باتت قريبة الفتح من قبل المسلمين، مما دفع بالامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين (1081-1118م) للالتجاء إلى البابا والاستتجاد بالعالم الغربي المسيحي³⁰، باعتبار القسطنطينية الممر الاساسي للمسلمين والمركز المتقدم الاول للدفاع عن الغرب الصليبي، وإن تمت عملية فتحها فسوف تكون أوروبا معرضة للغزو الاسلامي. وخاصة ان السلاجقة اصبحوا في مدينة نيقية في الساحل الشرقي لبحر مرمرة مقابل القسطنطينية في الضفة الغربية.

²⁹ العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص 30.

مع العلم أن المسلمين حاولوا أن يفتحوا بلاد الغرب (أوربا) عن طريق القسطنطينية مرتين بواسطة الجيوش والأساطيل: الأولى في عهد معاوية بن ابي سفيان سنة 49هـ/669م، والثانية في عهد سليمان بن عبد الملك سنة 98هـ/717م وفي كلتا الحالتين حاصر المسلمون القسطنطينية وأظهروا إصرارا كبيرا وعزما منقطع النظير، ولكنهم فشلوا في ذلك. ولكنهم بعد موقعة ملازكيرد رأى البيزنطيون أن عاصمتهم أصبحت في عين الاعصار الاسلامي ومن ثم توجهوا بالنداء إلى البابا وإلى امم النصرانية لمساعدتهم في تجنب هذه الكارثة بالنسبة إليهم.

ولا شك أن البيزنطيين كانوا يدركون الاهتمام الكبير الذي يوليه المسلمون إلى فتح القسطنطينية إذ بقي هذا الشغف متواصلا حتى فتحت من قبل المسلمين بقيادة السلطان محمد الفاتح سنة 857هـ/1453م أي بعد حوالي اربعة قرون من معركة ملازكيرد.

ونعود إلى معركة منزكرد بين السلاجقة المسلمين³¹ والبيزنطيين:

معركة ملاز كرد (مانزكيرت) 463هـ/ اوت 1071م³².

وهي معركة وقعت في ارمينيا الاولى عند اعالي الفرات، وقعت بها معركة مانزكيرت الحاسمة بين القائد السلجوقي "ألب ارسلان" وبين القائد البيزنطي "رومانوس ديوجين" وانتهت بانتصار باهر للمسلمين (التركمان) على البيزنطيين.

لما توفي الامبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر في سنة 1067م، تولت امه الامبراطورة ايدوسيا الوصاية على ابنها ميخائيل السابع دوкас لانه كان صغيرا ، وفي السنة التالية 1068م تزوجت القائد الاعلى للجيش "رومانوس ديوجين" ورفعته إلى العرش.

أدرك رومانوس ديوجين جسامه المهمة التي أنيكت به فكان أول عمل قام به التوجه نحو استعادة ارمينا، ومن ثم نهض إلى تنظيم الجيش تقوى في زمنه حتى أصبح تعداداه

³¹ السلاجقة(447-589هـ / 1055-1194م).

³² عن معركة منازكر(ملازكرد) انظر، ابن الجوزي: المنتظم، ج16، ص 123-128. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج19، ص231-239. ابن الاثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، 1402هـ/ 1982م ، ج10، ص 65. الياضي: مرآة الجنان، ج3، ص 118. الذهبي: تاريخ الاسلام، 10، ص 141-143.

يتعدى مائة ألف جندي وكان خليطا من البيزنطيين الذين يشكلون الاغلبية، ومن الاتراك وكذا الفرنج والنورمان.

وعندما انهى الامبراطور "رومانوس ديوجين" استعداداته غادر بجيشه عاصمة بلاده القسطنطينية في اتجاه ارمينيا، وفي طريقه وردته اخبار استيلاء النورمان على باري في ايطاليا وهي آخر ما تبقى لبيزنطة من املك في شبه الجزيرة الايطالية³³.

وعندما اقترب من ملازكرد قام بتقسيم قواته فمضى بنفسه إلى ملازكرد. وبقيّة الجند للاستيلاء على حصن خلاط الواقع في شاطئ بحيرة وان.

- كان السلطان السلجوقي "ألب أرسلان" قد بدأ عملياته في هذه السنة وتحضيرا لهذه المعركة بالاستيلاء على مدينة حلب والقضاء على النفوذ الفاطمي فيها.

ثم رجع عن حلب وعندما وصل إلى خوى من انريبيجان وصلته المعلومات بتحرك الامبراطور البيزنطي نحو ملازكرد وخلاط، وسمع من وفرة جنودهم، ورغم قلة جنده 15 الف مقاتل كلهم من الفرسان، فإنه قرر مواجهة الامبراطور البيزنطي.

وتقابل الطرفان، وبعث السلطان "ألب أرسلان" إلى ملك الروم رومانوس يطلب منه المهادنة فأجابته "لاهدنة إلا بالري"³⁴ (عاصمة الب ارسلان أي تدمير عاصمة السلاجقة)

فانزعج السلطان الب ارسلان فقال له إمامه وفتيحه "ابو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي": "أنتك تقاثل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي يكون فيها الخطباء على المنابر فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة"³⁵.

وبدأت المعركة كما كان مسطرا لها، وانقض الب ارسلان بجيشه على الجيش البيزنطي وهزمه هزيمة منكرة، وأسر الامبراطور رومانوس ديوجين، وجيء به إلى السلطان الب ارسلان ودارت بينه وبين الاسير حديث كان من نتائجه ان يدفع الفدية ومقدارها الف

³³ ستيفن رانيسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج 1 ص

³⁴ ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج 10، ص 65.

³⁵ ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج 10، ص 65-66.

الف دينار وخمسمائة الف دينار وان يطلق كل اسير وان يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها³⁶.

وما كاد الامبراطور يصل إلى قلعة دوقية حتى بلغه استيلاء ميخائيل دوкас ابن زوجة رومانوس على السلطة باعتبار انه الوريث الشرعي وانه بلغ الرشد، وعندئذ اظهر رومانوس الزهد و لبس الصوف وأرسل إلى ميخائيل يعلمه بالاتفاق الذي دار بينه وبين السلطان الب ارسلان، فأجابه إلى ذلك ولما استقر من الاتفاق³⁷ . وجمع رومانوس ما عنده من اموال فكان مائتي الف دينار وطبقا من ذهب عليه جواهر بتسعين الف دينار، فأرسلها إلى السلطان الب ارسلان وحلف له بأنه لايملك غيرها ولا يقدر على غير ذلك³⁸.

وتذكر المصادر البيزنطية أن رومانوس بعد ذلك حاول مرة اخرى الاستيلاء على ارمينية فأرسل إليه ميخائيل السابع قوات بيزنطية الحقت به الهزيمة وحملته إلى القسطنطينة، وبلغ التنكيل به حد اقتلاع عينيه، ولم يلبث بعد ذلك سوى أيام قليلة حتى قضى نحبه³⁹.

نتائج معركة ملازكيرد:

اعتبرت هزيمة البيزنطيين في ملازكيرد ضربة قاصمة لهم⁴⁰ وتأكدا للصليبيين فيما بعد ان البيزنطيين فقدوا بعد معركة ملازكيرد ماتخذوه من لقب باعتبارهم حماة العالم المسيحي، وصارت هذه المعركة ذريعة من الذرائع التي اتخذها الغرب الصليبي غارة على العالم الاسلامي⁴¹.

³⁶ عن كيفية أسر الامبراطور ،والمحادثة التي كانت بينه وبين السلطان ألب أرسلان، انظر، ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص66-67. ابن الجوزي: المنتظم، ج16، ص 125-126.

³⁷ ستيفن رانيسمان: تاريخ الحروب الصليبية ج1، ص 126.

³⁸ انظر، ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص66-67. ابن الجوزي: المنتظم، ج16، ص 125-126.

³⁹ ستيفن رانيسمان: تاريخ الحروب الصليبية ج1، ص 127.

⁴⁰ فشر: تاريخ اوربا في العصور الوسطى، ص 175. واعتبرها المسلمون من فتحا عجا لانظير له، انظر ابن الجوزي: المنتظم، ج16، ص 128.

⁴¹ ستيفن رانيسمان: تاريخ الحروب الصليبية ج1، ص 125.



السبب الثاني: زوار بيت المقدس النصارى وادعائهم مضايقة المسلمين لهم واضطهادهم وانتهاكهم حرمة الاماكن المسيحية المقدسة.

والحقيقة ان المسلمين منذ فتح بيت المقدس كانوا يعاملون المسيحيين معاملة خاصة، والعهد العمرية كفيلة بالتأكيد على ذلك من حفظ العهود وصيانة الاماكن المسيحية من الخراب ، وهذا من صميم مبادئ الاسلام الذي حث نبيه الكريم على ذلك في قوله: "من ظلم ذميا فأنا خصمه يوم القيامة".

أما فيما بعد فيوجد من الحكام المسلمين من كان يتعامل سياسيا مع المسيحيين ومنهم قريب عهد بالحروب الصليبية الحاكم بأمر الله الفاطمي (375-410هـ) الذي كان عهده عهد اضطراب وفتنة وقيل فيه أنه كان كثير التلون، وقيل فيه انه لم يل مصر بعد فرعون شرا منه، ورام ان يدعي الالهية، وكان كثير التلون، هدم الكنائس ثم أعادها، واسلم كثير

من الذمة لذلك، ثم أذن لمن اسلم ان يعود إذا شاء إلى دينه، وبنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ثم قتلهم وخرّبها". وكنه في الواقع كان شخصية لم يسلم منها المسلمون بمختلف طبقاتهم وشرائعهم وطوائفهم ومذاهبهم من العلماء والقضاة والوزراء والعامّة والخاصة والرجال والنساء ولم يسلم منه حتى والدواب، وما تعرض له المسلمون عموماً اضعاف ما تعرض له المسيحيون من هذه الشخصية الغريبة.

ونظراً لأفعالها المشينة فقد أدانه كل المؤرخين دون استثناء واستهجنوا صنيعه بالمسلمين وغيرهم من المسيحيين واليهود، وكان خليفته الظاهر مستاءً مما فعل سلفه الحاكم فقرر في السنوات الأولى من حكمه إعادة بناء مانهدم من كنائس النصارى وترميمها بأموال الدولة وبمشاركة عموم المسلمين في ذلك وهو تعبير عن روح المواطنة التي يتميز بها المسلمون مع غيرهم من أهل الكتاب.

ولكن الحوادث الأقرب إلى بدايت الحروب الصليبية هي أن السلاجقة استولوا على بيت المقدس وانتزعوه من أيدي الفاطميين، كما انتزعوا انطاكيا وأسيا الصغرى من أيدي البيزنطيين، واصبحت بيت المقدس في منطقة الكر والفر بين المسلمين السلاجقة السنيين وبين الفاطميين الشيعة، ومن ثم كان بعض النصارى يتعرضون إلى مشاكل أمنية، ولكنها لم تكن بالقدر الذي يعلن فيه الحرب بسببها.

وحتى بطرس الناسك لم يمنعه ذلك من المجيء إلى بيت المقدس والسلاجقة اصحابه ثم يرجع إلى بلاده ليعلن الحرب على المسلمين، ووجوده دليل أن الامن لم يكن معدوماً. وخاصة في هذه الظروف التي اصبح فيه العالم المسيحي مهوساً بقضية اقتراب نهاية العالم والذهاب إلى بيت المقدس لغفران الذنوب.

السبب الثالث : سوء الاحوال الاجتماعية والاقتصادية في أوروبا.

الوضع الاجتماعي الذي كانت عليه الطبقة الدنيا من شعوب العالم المسيحي من الفقر والحرمان والضرائب والظلم والتسخير، زيادة على المجاعة التي تعرضت لها أوروبا إبان الحروب الصليبية، فإن أي دعوة لتغيير وضعها سوف تهزول إليه، وقد استغلت في ذلك ايما استغلال باعتبار النداءات التي كانت تصور الشرق الاسلامي وكأنه جنة يمكن لمن

يذهب إليها أن يعيش رغد الحياة، فهذه الاماني الاقتصادية في تحسين وسائل العيش لقت تجاوبا كبيرا من قبل هذه الطبقة المحرومة.

اما طبقة الاشراف والاقطاعيين فكانت أحلامهم تراودهم في تأسيس ممالك واقتطاعات أخرى في العالم الإسلامي ومن ساهموا في تمويل الحملات الصليبية وتعبئة الجيوش، وكل يخطب فيها أحلامه ويريد أن يكون له نصيب منها خاصة بعد تدهور الحالة العامة للعالم الاسلامي.

كما كانت مغامرات الفرسان الاستطلاعية نحو اكتشاف ما عند المسلمين، وكذا الطمع التجاري الذي تريد كل من الجمهوريات الايطالية(البندقية، جنوة، بيزة) ما يؤكد تركز الحملات الصليبية في الشام.

السبب الرابع: العامل الديني

قد وظف العامل الديني توظيفا كبيرا في الحملات الصليبية واستطاع التحالف بين السياسة والمؤسسة الكنسية أن يحشدوا باسم انقاذ قبر المسيح واستخلاص بيت المقدس من ايدي الكفار الغطاء او الستار الذي تلبست به كل الاسباب الاخرى حتى كانت الشعوب الغربية تبدو أنها انساقت لهذه الحروب تجرها فقط الغيرة الدينية، وخاصة عندما نرى التحشيد الذي قام به البابا اوربان الثاني في خطابه للدول الاوربية حيث استعمل جميع وسائل الاغراء في خطبته التي القاها في مجمع كليرمونت في نوفمبر 488هـ/ 1095م.

"السبب الخامس: موقف الفاطميين بمصر.

يذكر كثير من المؤرخين أن من أسباب الحروب الصليبية على الشرق الاسلامي هو مراسلة الفاطميين للصليبيين وأمم الفرنج وتشجيعهم على مهاجمة السلاجقة، لأن السلاجقة افتكوا الشام من أيدي الفاطميين، زيادة على الخلافات المذهبية بين الطرفين. فإذا تم دحر السلاجقة عن مراكزهم امكن للفاطميين من استغلال الفرصة واسترجاع المدن المسلوبة منهم، وحسب بعض المصادر الغربية فإن هناك اتفاقا سريا وقع بين الامبراطور البيزنطي وبين الخليفة الفاطمي ضد السلاجقة، ولكننا لا نرى ذلك سببا وجيها بل كان من المحفزات التي ساهمت في تنشيط شهية الغرب نحو الحرب ضد المسلمين استغلالا للتفكك الاسلامي في هذه المرحلة والسرعة في الانجاز ما دام صف المسلمين الى هذا الحد من التشرذم. .

ومهما يكن من أمر فإن الفاطميين كانوا يتوقون لدحر قوة السلاجقة فبقوا ساكنين بل
عندما كان الصليبيون محاصرين لأنطاكيا استغلوا هذه الفرصة واحتلوا بيت المقدس، ثم لما
هاجمتهم القوى الصليبية تراجعوا بسرعة وتركوا لهم.

المحاضرة الخامسة

"الحرب الصليبية الاولى"

الاستعداد:

في سنة 486هـ/1093م زار بيت المقدس للحج راهب فرنسي يدعى بطرس الناسك **PIERRE LERMITE** واغتاز مما رآه من حكم المسلمين لبيت المقدس ولغيرها، وربما رأى ما عليه المسلمون من الفرقة والحروب التي والشقاق و التفكك، فعزم على دعوة المسيحيين لاتغلال هذه الفرصة النادرة لانقاذ واحتلال بيت المقدس والاماكن المقدسة من ايدي المسلمين.

وعند عودته إلى بلاده فرنسا مر بروما حيث يوجد البابا أوربان الثاني باعتباره القائد العام للمسيحيين في العالم، حيث كانت فكرة انقاذ بيت المقدس تراود البابا السبق له غريغوريو السابع.

استغل البابا هذه الشخصية وأمره بتحشيد الشعوب المسيحية وشحنها للقيام بهذه المهمة.

وبدا بطرس الناسك حملة واسعة ضد المسلمين وتحفيزا للمسيحيين من اجل انقاذ بيت المقدس وكنيسة القيامة واستخلاصهما من المسلمين. فسار متجولا بين فرنسا وايطاليا راكبا بغلة معتنقا الصليب مهيجا الناس من أجل حرب المسلمين مثيرا لحماستهم.

المجامع الكنسية:

قام البابا اوربان الثاني من جهته بالدعوة لعقد مجمع كنسي لوضع خطة لغزو المسلمين وانقاذ البيت المقدس كما يزعمون، وكان اول هذه المجامع مجمع بليزانس بشمال ايطاليا، حضره الكثير من القساوسة والرهبان والعلماء والسياسيين عقد في مارس 488هـ/1095م، واتفق المجمع على وضع خطة تخلص الاماكن المقدسة، ومجرد رجوعهم خفنت حماستهم ولم تستمر الجهود ولم تثمر وربما كان من أهم الاسباب التي ساهمت في ذلك الخلافات التي كانت بين البابا وامبراطور المانيا.

غير ان البابا(اوربان الثاني الفرنسي الاصل) لم يبأس فقرر عقد مجمع آخر في بلاده في كليرمون الفرنسية في نوفمبر من نفس السنة 1095م من 18 إلى 28 نوفمبر ولقى البابا يوم 27 نوفمبر بيانا (خطابا) احتشد فيه عدد كبير من القساوسة والعلمانيين لم تنتسح لهم الكاتدرائية فجلس البابا على منصة خارج الكاتدرائية ولقى فيهم خطبته المشهورة، هذه الخطبة التي يرى كثير من الباحثين أنها لم تسجل في حينها ولكن كل ما هو موجود منها عبارة عن اعادة لكتابتها وتلخيصها بأساليب مختلفة التزم فيها ما امكن ما جاء في خطبة البابا⁴²، ومما جاء فيها:

"يا شعب الله المحبوب المختار، لقد جاءت من تخوم فلسطين، ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى فى تلك البلاد، بلاد المسيحيين فى الشرق، قلب موائد القرابين المقدسة، ونهب الكنائس وخرابها وأحرقها، وساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم، وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع تعذيب، ودنسوا الأماكن المقدسة برجسهم، وقطعوا أوصال الإمبراطورية البيزنطية، وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها فى شهرين كاملين.. على من إذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم، واستعادة تلك الأصقاع إذا لم تقع عليكم أنتم، أنتم يا من حباكم الله أكثر من أى قوم آخرين بالمجد فى القتال، وبالبسالة العظيمة وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون فى وجوهكم؟ ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوي قلوبكم، أمجاد شارلمان وعظمته، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم، فليثر همتمكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا - الضريح الذى تمتلكه الآن أمم نجسة، وغيره من الأماكن المقدسة التى لوثت ودنست - لا تدعوا شيئاً يقعد بكم من أملاككم أو من شؤون أسركم، ذلك بأن هذه الأرض التى تسكنونها الآن والتى تحيط بها من جميع جوانبها البحار، وتلك الجبال، ضيقة لا تنتسح لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بمن يكفيكم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم فى الحروب الداخلية . طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد، وأفضوا على ما بينكم من نزاع واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم، إن أورشليم أرض لا نظير لها

⁴² انظر نسا آخر مقتطف من الخطبة فى ، ستيفن رانيسمان: تاريخ الحملات الصليبية، ج1، ص 190.

في ثمارها، هي فردوس المباهج إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم ، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجداً لا يفنى في ملكوت السموات".

واتفق الجميع على ان يكون يوم الانطلاق هو 15 اوت 499هـ/ 1096

حملة الشعوب (الفقراء):

كان جيش بطرس الناسك مكونا من كتائب صليبية غاية في الفوضى، من جهات عديدة من اوروبا ومن فئات مختلفة من الناس، والكثير منهم اصطحبوا زوجاتهم وابنائهم، وكان منهم الفلاحون واهل المدن، وبعض قطاع الطرق والمجرمين، ولم يكن هذا الجيش خاضعا لاي نظام وما كانت تجمعه فقط هو الحماسة الدينية لقتل الكفار من المسلمين وتخليص بيت المقدس وقبر المسيح وكنيسة القيامة.

ووصلت هذه الحملة إلى القسطنطينية في جويلية 1096م قبل الموع، وكانت في طريقها تنهب الناس اموالهم وممتلكاتهم وخاصة عندما مرت بالمجر، ومات منها الكثير.

ونظرا لكثرتهم (وصفوا بان شعب اوربا قد اقتلع من جذوره مبالغة في تقدير العدد الهائل الذي حل بالقسطنطينية) فقد كان امبراطور القسطنطينية الكيسيس كومنين يخشى منهم على عاصمته وبعد مفاوضات قرر تحميلهم عبر مراكبه إلى الضفة الشرقية للبوسفور وبحر مرمرة باتجاه عاصمة السلاجقة نيقية في محاولة لاحتلالها، وهم في كل ذلك ينهبون ويسطون على ممتلكات القرى الاسلامية التي يمرون بها، ويقتلون المسلمين دون رحمة ولا شفقة واتوا في ذلك بالشنائع ، بل قال أحد المؤرخين : " انهم كانوا يشوون الاطفال على السفايد ".

وما ان علم بهم السلطان السلجوقي قلع ارسلان حتى اسرع لقتالهم وأبادهم عن آخرهم بما فيهم كثير من القادة، ولم ينج إلا القليل بما فيهم بطرس الناسك أمير هذه الحملة.

- حملة الامراء والإمبراطور:

هذه الحملة هي التي يعتبرها المؤرخون الغربيون الحملة الصليبية الأولى باعتبار حملة الشعوب كانت فاشلة بكل المعايير، ولأن حملة الامراء تميزت بالتنظيم وكان قاداتها من فرنسا وإيطاليا ومكونة من الاقطاعيين والامراء والاشراف، ولما تجهزت وقد أخذت الوقت الكافي لذلك من نوفمبر إلى أوت أي تسعة أشهر من التجهيز الكافي، ومن اجل موسم الصيف حيث تقل تكاليف السفر، ويتم كذلك حصاد الغلات.

وكانت هذه الحملة تتكون من مجموعة من أربعة الجيوش⁴³ :

1- حملة جنوب فرنسا يقودها ريموند دي سان جيل، سلكت من شمال ايطاليا ثم المانيا ثم كرواتيا وبلغاريا إلى القسطنطينية.

2- حملة من شمال فرنسا تحت قيادة روبرت كورت هوز وريارت الثاني، سلكت طريق شمال ايطاليا ثم الساحل الشرقي وابتحرت من برانديسي إلى البانيا ثم مقدونيا إلى القسطنطينية.

3- حملة من اعالي فرنسا من برابان في بلاد البلجيك الحالية بقيادة غو دوفروا واخيه بودوين دو بولوني، اخترقت المانيا وبلاد المجر إلى القسطنطينية.

4- حملة من جنوب إيطاليا قام بها النورمان الذين استقروا بجنوب إيطاليا وازالوا حكم البيزنطيين منها قبل سنوات بقيادة **تكريد وبوهيموند**، وابتحرت هذه الحملة من مرسى برنيسي إلى سواحل ألبانيا ثم مقدونيا إلى القسطنطينية.

كانت هذه الجيوش كلما مرت بمنطقة انضمت إليها فرق من الشباب المتحمس من المانيا والنمسا والمجر وخاصة في جيش غودوفروا التي سار في اوروبا الوسطى، وكانت مغرية بما فيها من النظام والتكفل بما يحتاجه المحارب التكفل التام، من اللباس والماكل والمشرب، دون عناء.

وكان عددهم يبلغ مئات الالاف.حتى نعت هذا الجيش بأنه شعب كامل يتحرك.

⁴³ جوناثان رايلس سميث : تاريخ الحروب الصليبية، ص 76.



-الوصول إلى القسطنطينية واحتلال انطاكية :

كان الامبرطور البيزنطي يخشى عواقب هذه الحملة على القسطنطينية ، ولذلك اجتمع بالقادة الصليبيين واخذ منهم الايمان المغلظة بأنهم سوف يُرجعون كل املاك البيزنطيين إليه عندما يتم احتلالها من قبلهم، مقابل مساعدتهم بكل ما يحتاجونه في هذه الحملة بالنقل والادلاء، وغير ذلك، فوافقوا على ذلك مكرهين⁴⁴ للضرورة التي كانوا يقاسونها.

⁴⁴ فشر: تاريخ اوروريا في العصر الوسيط، ص 185.



وهذا الاتفاق يبدو انه كان ظاهريا حتى لا تتفصم عرى هذه الحرب ولا يكون بينهم شقاق، لان الصليبيين ما جاؤوا إلا يمتلكوا ما يحتلون.

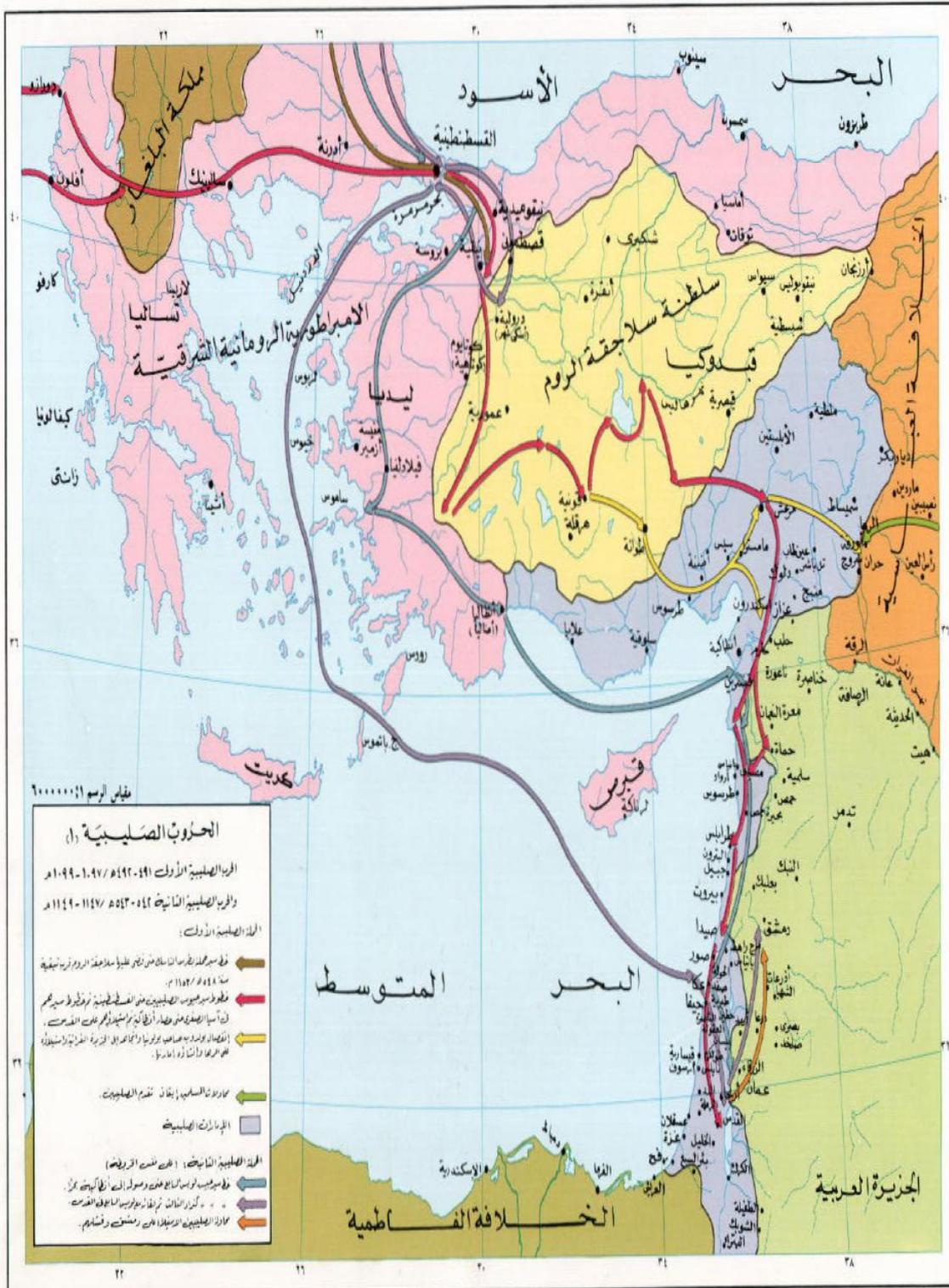
وتوجهت قوات الصليبيين وعبرت البوسفور و بحر مرمره، ونزلت بأرض آسيا الصغرى وتوجهت نحو مدينة نيقية عاصمة السلاجقة حيث كان السلطان قلق أرسلان في مهمة وعاود الحضور إلى المدينة وحاول صد هجوم الصليبيين ولكنهم من الكثرة بحيث لم يستطع فعل شيء سوى التحصن بأسوار المدينة

ونظرا لأن السلاجقة قبيل أيام قد اباد سلطانهم قلق أرسلان جيش الفقراء والشعوب، فإن الصليبيين ارادوا الانتقام منه بهذه الحملة الثانية، وتم حصار مدينة نيقية مدة خمسين يوما وفي الاخير سقطت المدينة. واحتلت من قبل البيزنطيين (وليس الصليبيين) الذين تفاوضوا سرا مع المسلمين لاختلائها لهم واستسلامها لهم دون علم الصليبيين الذين ارتابوا من ذلك (جمادى الثانية 491هـ/جوان 1097). وحسب العهود تركت نيقية للبيزنطيين.

تقدمت جيوش الصليبيين مختربة الاناضول متوجهة نحو الشرق، واعترضهم السلطان قلع ارسلان، ودرات بينهم معارط هزم فيها قلع ارسلان. وجعل بينهم مشاكل كثيرة وسعى في طريقهم سياسة الارض المحروقة حتى مات الكثير منهم بالتعب والعياء، ولكن كثرتهم كانت وراء استمرارهم.

ثم اكملت الجيوش الصليبية مسيرها نحو قونيا ثم اخترقوا جبال طوروس، وعندما وصلو إلى ارمينية الصغرى (ولاية اطنة الحالية) قدمت لهم مساعدات كبيرة من قبل الارمن ففتحوا لهم مدنهم، واصبحوا لهم اعوانا، مما ساهم في تسريع ذهابهم نحو انطاكيا ومحاصرتها.

ويبدو ان بلدوين وتكرد قد اختلفا كثيرا في كيفية المسار بالحملة فانسحب بلدوين وتوجه نحو الرها تلبية لدعوة اميرها فاستقل بها وأسس فيها امارة لاتينية اما سائر الصليبيين فقد زحفوا متوجهين الى انطاكيا.





احتلال انطاكيا:

كانت انطاكيا تحت حكم ياغيسيان السلجوقي وكانت ذات ابراج وحصون منيعة، الذي بادر على احكام المنافذ للمدينة وتحصينها، وجاء الصليبيون وحاصروا المدينة في سنة (491هـ / 20 اكتوبر 1097) ولم يستطيعوا الاطاحة بها ، وتحملوا في هذا الحصار كل انواع العنت والمشاق خاصة والفصل شتاء، ونالهم التعب والبرد، وفعلوا كل الرذائل، وملوا البرد والجوع، وطال أمد الحصار إلى جوان 1098م.

وحاول المسلمون فك الحصار على المدينة فجاءت قوات من قبل الامير دقاق صاحب دمشق، ومن طرف الامير رضوان صاحب حلب، وكذلك جاءت نجدة من قبل سلطان ايران السلجوقي ، ولكن كلها باءت بالفشل.

أما الفاطميون فقد جعلوا من هذا الحصار وانشغال السلاجقة به فرصة لاستعادة بيت المقدس من السلاجقة ، وبعث الخليفة الفاطمي **المستعلي بالله** وفدا إلى الصليبيين يعرض عليهم الصلح وتأمين أماكنهم المقدسة ، وحماية حجاج النصارى إلى بيت المقدس، غير أن الصليبيين رفضوا هذا العرض، واستمروا في محاصرة انطاكيا دون أن يتمكنوا من احتلالها حتى وقعت **خيانة** من قبل أحد حراس الابراج الاسلامية هو فيروز الارمني الذي تفاوض سرا مع بوهيموند مقابل أموال طائلة وعد بها، وفتح الباب للصليبيين ودخلوها وعاثوا فيها فسادا وقتلا وتخريبا وابعادها أياما.

وهرب حاكمها ياغيسيان مع مجموعة من الجند والمقربين، ولم يدافع عن مدينة دفاع الابطال، وترى المصادر الاسلامية أن الجند لو قاوموا ساعة من نهار لازاحوا الصليبيين وقتلهم داخل المدينة، غير أنه انتبه إلى خطئه الفادح في ترك المدينة لمصيرها متأخرا عندما كان على بعد حوالي خمسة فراسخ، واراد الرجوع إليها ولكنه اصيب بالكمد يعصر قلبه فسقط من على فرسه مغشيا عليه، وحاول جنده أخذه معهم هاربين فلم يستطيعوا، وتركوه مغشيا عليه، ومر به احد الرعاة هناك فقطع رأسه وأخذه إلى الحاكم الجديد لانطاكيا، وهكذا ذهبت روحه، وفاتته الشهادة والاخلاص للمدينة.

وعندما سقطت المدينة جاء **عماد الدين كربوغا** صاحب الموصل مع عدد من امراء السلاجقة (بعد فوات الاوان) وحاصروا الصليبيين في انطاكيا واشتد الحصار عليهم حتى كادوا يستسلمون إلا أن سوء إدارة كربوغا والتنافر الذي حدث بينه وبين الامراء الاخرين عمل على فك الحصار على انطاكيا. وهنا تأتي الحزازات الشخصية في المواقف الكبيرة لتفسد وتطيح بكيان الامة بكاملها.

وبذلك استقرت انطاكيا للصليبيين ونصب **بوهيموند النورماني** حاكما اميرا عليها، وتؤكد الصليبيون أن حملتهم تسير بخطى ثابتة، وأمدهم هذا الانتصار بدافع اكبر نحو استكمال مهمتهم الرئيسية، وتوجهت بقية الحملة إلى بيت المقدس.

أما ساسة المسلمين فقد اسقط في أيديهم نبأ احتلال انطاكية، وعوض أن يستجمعوا قواهم، ذهبوا إلى التماس المكاييد بينهم، وكانت العداوات المتجذرة بينهم مانعة لهم من أي تقارب، وكانت حميتهم الدينية وشعورهم الاسلامي لا يكاد تذكر مع التوجه الصليبي للغربيين

احتلال بيت المقدس:

ولما تمكن الصليبيون من احتلال انطاكيا توجهوا نحو بيت المقدس بقيادة قودفروا دي بويون تحذوهم العزيمة والروح المعنوية العالية، مستغلين الاحباط الذي عاناه المسلمون من هزيمتهم في انطاكيا⁴⁵، ومستبقين الزمن حتى لا تفتر عزائمهم ، ولا يستفيق العالم الاسلامي من نومته العميقة فيفسد عليهم مشروعهم الذي جاؤا له من أقاصي اوروربا،

ومن العجب العجاب أن يجد المؤرخ جوابا شافيا لما حدث في هذا العصر فأين كان المسلمون في هذا الظرف والصليبيون يتوجهون على مرأى منهم إلى أولى القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين ومسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف كانوا ينظرون إلى الحشود الصليبية التي قطعت مسافات طويلة وشاقة ومكلفة للمال والنفس، بينما هم في بلادهم وفي أحوازهم !!! مالذي أصابهم؟

والجواب يمكننا تلخيصه في عنصرين أساسيين:

الاول: التفكك والفرقة والتنازع الذي توطن منذ مدة بين الاخوة الاعداء، وما نتج عنه من حروب وعداوات جعلت بأسهم بينهم شديد، وأصبحوا يتمنون حضور العدو والاستيلاء على مدن اعدائهم نكاية فيهم وحب في الرياسة، بل تتحدث المصادر عن علاقات مشبوهة سرية وغير سرية امتدت بين بعض القيادات الاسلامية وبين البيزنطيين للاطاحة بالسلاجقة وغيرهم⁴⁶.

والثاني: تهاوي البعد الاسلامي في المجتمع، وتقلص الشعور بالمقدسات الاسلامية، وأصبحت علاقة المسلمين بدينهم وعقيدتهم تكاد تنعدم في مقابل جحافل الصليبيين الذين يتوشحون عقيدة الصليب ويتلهفون من أجلها لقتال المسلمين.

وباستيلاء الصليبيين على انطاكيا استأنفوا زحفهم باتجاه بيت المقدس (اورشليم) وكان الامبراطور البيزنطي يمددهم بالمرشدين و الادلاء .

⁴⁵ ابن الجوزي: المنتظم، ج17، ص 43.

⁴⁶ ابن الاثير : الكامل في التاريخ جزء10،صفحة 273

كان مدينة بيت المقدس تحت حكم الفاطميين الشيعة منذ شعبان من سنة 489هـ بقيادة افتخار الدولة، ووصل الصليبيون وعددهم حوالي أربعين ألفا الى المدينة وحاصروها مدة تزيد عم اربعين يوما، ولم يتمكنوا من دخولها إلا بعد ان نصبوا برجين كبيرين و تعرضوا لوابل من نار المسلمين⁴⁷، وبعد عناء كبير استطاع الصليبيون دخول مدينة بيت المقدس، وأحدثوا فيها مذبحه شنيعة قتل فيها أكثر من سبعين ألفا⁴⁸، حيث خاضت خيولهم في برك من الدماء التي كانت تصل إلى الركب⁴⁹.

ونترك صاحب الكامل في التاريخ يحدثنا عن هذه الفاجعة الكبيرة وحرب الابدادة و الافعال الشنيعة التي قام بها الصليبيون ضد المسلمين فيقول "وملكوها من جهة الشمال منه ضحوة نهار الجمعة لسبع بقين من شعبان (492هـ / 15 يوليو جويلية 1099م)، وركب الناس السيف، ولبث الافرنج في البلدة اسبوعا يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داوود، فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثة ايام، فبذل لهم الفرنج الامان، فسلموه اليهم ،ووفى لهم الفرنج، وخرجوا ليلا الى عسقلان فاقاموا بها.

وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى مايزيد على سبعين ألف⁵⁰ منهم جماعة كثيرة من ائمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الاوطان وجاور بذلك الموضع الشريف وأخذوا من عند الصخرة نيفا واربعين قنديلا من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم واخذوا تتورا من فضة وزنه اربعون رطلا بالشامي، واخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا نقرة ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا وغنموا منه مالا يقع عليه الإحصاء"⁵¹.

وتحدث المؤرخ رانيسمان عن المذابح التي اقترفها الصليبيون في حق المسلمين واليهود فقال تحت عنوان " المنتصرون يرتكبون المذابح":

: "فهذا النصر الكبير بعد تلك المعاناة الشديدة اصاب الصليبيين بمس من الجنون، فاندفعوا في الشوارع واقتحموا المنازل والمساجد وأخذوا في تقتيل كل من يقابلهم، يستوي في ذلك

⁴⁷ انظر تفاصيل سقوط بيت المقدس في ، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ، ج 19 ، ص 497.

⁴⁸ ابن الجوزي: المنتظم، ج17، ص 43، 47. اليافعي: مرآة الجنان ، ج3، ص 118.

⁴⁹ رانيسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ص 435.

⁵⁰ بعض المؤرخين قر عدد القتلى مائة الف، انظر، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ، ج 19 ، ص 497.

⁵¹ ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج، 10 ص 283-284

الرجال والنساء والأطفال. واستمرت المذبحة طوال ما بعد الظهر وخلال الليل كله، و لم تشفع راية تانكريد في حماية اللاجئين بالمسجد الاقصى ، ففي باكورة الصباح التالي اقتحمت عصابة من الصليبيين المسجد وقتلوا كل من فيه. وعندما ذهب المؤرخ ريموند اوف اجيليه في وقت متأخر من ذلك الصباح لزيارة منطقة الحرم الشريف كان عليه ان ينتقي مواطئ قدميه بين الجثث والدماء التي وصل ارتفاعها الى ركبتيه

وهرب يهود القدس في حشد واحد الى كنيسهم الرئيسي، لن الصليبيين اعتبروا انهمقدموا المساعدة للمسلمين، فلميظهروا تجاههم اية رحمة، واشعلوا النيران في المبنى واحترق اليهود كلهم بداخله.

وكان لمذبحة القدس وقع عميق على العالم كله.وليس في مقدور احد ان يعرف عدد الضحايا، وإنما افرغ الصليبيون القدس من سكانها المسلمين و اليهود ، و اصيب كثيرون، حتى من المسيحيين ، بالهلع مما جرى . وحتى ذلك الوقت كان هناك من بين المسلمين من هم على استعداد لقبول الفرنج كعنصر اخر في سياسات ذلك الزمان المعقدة . بيد انه بعد المذبحة اصبح هناك تصميم واضح على طرد الصليبيين ، و كان هذا الدليل على التعصب المسيحي المتعطش للدماء هو الذي ادى الى تعصب المسلمين. وفيما بعد، عندما حاول لاتينيوس الشرق الاكثر حكمة السعي نحو ايجاد بعض الاسس لتعاون المسيحيين و المسلمين ، كانت ذكرى المذبحة تقف دائما عائقا في الطريق⁵².

ولقد اعتبرت هذه المجازر وصمة عار في جبين الاوروبيين استاء لها كل من سمع بها ممن له ذرة من إنسانية الانسان⁵³.

وعلى إثر هذا الاحتلال انتخب قودفروا ملكا على بيت المقدس لبعالته وإقدامه في هذه الحرب واكتفى بلقب حامي قبر المسيح⁵⁴.

وقد كان سقوط بيت المقدس ضربة قاصمة للعالم الاسلامي كله وكارثة مدوي أحس بمرارتها كل المسلمين في المشارق والمغرب وأفاقوا على ضياع مسرى رسول الله صلى الله

⁵² رانيسمان: تاريخ الحملات الصليبية 1 - من كليرمونت إلى أورشليم ص 434-435.

⁵³ انظر عن ذلك ، جونثان رايلس سميث: تاريخ الحروب الصليبية ، ج1، ص21. قال عنها بأنها " حقبة مأساوية ومدمرة".

⁵⁴ بالنسبة للبابا أوربان الثاني توفي في إيطاليا بعد اسبوعين من سقوط بيت المقدس، ولم تصله أخبار المدينة. رانيسمان: م. س، ص 436 ،

عليه وسلم، - كما يحدث لبيت المقدس في عصرنا حيث كان احتلاله من قبل اليهود سنة 1948م بدعم كامل من قبل أوروبا، وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا بواسطة وعد بلفور سنة 1917، وبمباركة تامة من امريكا وروسيا وكل الدول الأوروبية، وبتواطؤ الصمت العربي المخزي، وكأن التاريخ يعيد نفسه بوجوه جديدة ولكن بقلوب قديمة لاتختلف عن قلوب بطرس الناسك والبابا أوربان الثاني ولاعن القادة العسكريين وجحافل المحاربين - وانبرى كثير من الشعراء يرثون بيت المقدس ويرثون حال المسلمين واختلافهم وتشتتهم فقال ابو المظفر الابيوردي ابيات منها⁵⁵:

مزجنا دماء بالدموع السواجم *** فلم يبق منا عرضة للمراحم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه *** إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فأيها بني الاسلام إن وراءكم ***

واعتبر الصليبيون الاستيلاء على بيت المقدس أهم نتائج الحرب الأولى، وانتصارا للصليب⁵⁶، ولما عاد المحاربون إلى بلدانهم تلقاهم الناس بالافراح والتحفافة، وكان لقصصهم عنفوانها في المشاعر الفياضة التي قولوا بها وزادت من أهمية هذه الحروب، وكانت بلا شك ملهمة لسلسلة الحروب الصليبية التي جاءت من بعد متخذة منها عنوانا على الارادة والتفاني من اجل الصليب، بل ظلت الحرب الاولى التي خلدت في الضمير المسيحي في العالم الغربي إلى عصرنا الحالي.

⁵⁵ انظرها في سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ، ج 19 ، ص 499. وابن الا ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج 10 ص 284.

⁵⁶ المؤرخ رانسيماط يضع عنوانا للباب الخامس: " أرض الميعاد" كما يضع عنوان الفصل الثاني من هذا الباب بعنوان " انتصار الصليب" على أحداث الاستيلاء على بيت المقدس.

وبعد احتلال بيت المقدس وتهوي الروح المعنوية عند المسلمين ووصول المساعدات التي تقدمها أساطيل المدن الايطالية أخذ الصليبيون في الاستيلاء على المدن المتبقية فاستولوا على عكا وصور، وانتهت الحرب الصليبية الاولى، ورحل كثير من الغربيين إلى فلسطين واتخذوها وطنا جديدا لهم، وأنشأوا أربع إمارات لاتنية في الشام هي:

- إمارة بيت المقدس بقيادة قودفروا ثم أخود بلدوين من بعده.

- إمارة انطاكيا وأميرها بوهيموند ثم ابن أخيه تانكرد.

- إمارة طرابلس وأميرها ريموند.

- إمارة الرها وأميرها بولدوين.

وتمكنت هذه الامارات من نسج علاقات وفق نظام الاقطاع الذي جاؤوا به من اوروربا، ورغم ان هذه الامارات اللاتنية كانت مستقلة إلا أنها كانت تعتبر ملك بيت المقدس سيدا لهم، واصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة السائدة بسبب تغلب العنصر الفرنسي، ولذلك أطلق العرب اسم الفرنجة على الصليبيين جميعا.

كما تأسست جمعيات دينية للعناية بالمرضى والجرحى والحجاج والدفاع عن الاراضي المقدسة أهمها: طائفة فرسان المعبد، وفرسان القديس يوحنا، وانظم إليهم كثير من فرسان الغرب وأغدقت عليهم الهبات والاموال من أغنياء العالم الغربي.

مجازر الصليبيين في بيت المقدس.

